رواية

للأسف .. نحن بشر

تأليف

هشام فياض

HESHAM FIAD



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : رواية للأسف .. نحن بشر

المؤلف : هشام فياض

الطبعة الأولى 2015



إهداء....

والدي الحبيب ، كلما ضاقت بي سبل الحياة شعرت بمدى ضعفي واحتياجي إليك .

رحمة الله عليك.

هشام فياض

1

ي ليلة مقمرة ، يتسلل شعاع دقيق من ضوء القمر على إستحياء ، يرسم لنفسه مساراً ، يسقط على سطح الحائط المقابل ، وكأنها شاشة عرض ، وفى احد أركان الغرفة يجلس سعيد توفيق متكوراً على الفراش ، مكوناً نصف دائرة ، يمثل رأسه مركزها ، موجهاً عينيه صوب الحائط المضئ ، وكأنه يرى فيلماً سينمائياً يعرض أمامه ، رأى قوات الإحتلال الإسرائيلى ، تحاصر منزل عرفات ، وتقطع عنه الماء والكهرباء ، وطائرات أمريكية تقذف أفغانستان بالقنابل والصواريخ ، وطائرات أخرى تلقى بأكياس الطعام والكساء .

بدأ يحدث نفسه بصوت مسموع ، أه.....سياسة الجزرة والعصا، أو العصا لمن عصى ، أمريكا مقدمة على ضرب العراق بذريعة محاولتها إمتلاك سلاح نووى ، وتقدم كل الدعم لإسرائيل ، رغم علمها بأنها تمتلك كل أنواع أسلحة الدمار الشامل ، صواريخ موجهة للعراق ، وصواريخ أخرى من نوع باتريوت فى إسرائيل لحماية مفعل ديمونة النووى ، الأسلحة أصبحت أنواعاً وعائلات ، أسلحة دمار شامل ، ونصف شامل ، وأسلحة لحين ميسرة ، مثل أسلحتنا ، أسلحة بنصف تأثير ، ونصف تكنولوجية ،ونصف لسان ، لأننا معها فقدنا حتى القدرة على التنديد والشجب ، يقولون إن إنسان حيوان ناطق ،

معذرة لكل حيوانات العالم ، معذرة أيضاً لداروين ونظرياته ، الإنسان ليس أصله قرداً، لأن القردة مازالت تحافظ على الطبيعة ، وعلى المناخ ، ولم تثقب الأوزون ، لم نسمع يوماً بأن قرداً قتل قرداً، أو سرق قرداً ، أو خطف قرداً ، حتى التنافس على إناث القردة ، يتم بشرف ونزاهة وعلانية ، الشرف

الآن كلمة نادرة ، فى هذا الزمان ، لا ...لا نحن لسنا بقردة ، ولم نكن ملائكة ، نحن بشر ....بشر .

يدخل أحمد الأخ الأصغر لسعيد الغرفة ، ويضيء المصباح ، فينفرد جسد سعيد المتكوّر وكأنه ياي مضغوط تحت جنح الظلام ، فتح عينه بصعوبة ، من شدة الإضاءة المفاجئة ، طلب من أحمد أن يغلق المصباح ويتركه ، أخذ أحمد يداعب أخاه ، ما بك يا أبو السعد؟ مع من كنت تتحدث ؟ هل كنت تحدث نفسك ؟ أم فقدت عقلك أنت الآخر مثل أستاذك الدكتور شلتوت .

خرج سعيد عن صمته ، وقال بصوت حاد : قلت لك أكثر من مرة إن الدكتور شلتوت أعقل إنسان على وجه الأرض ، تذكر دائماً أنه كان رئيس هيئة الطاقة الذرية ، وأشرف على مئات الرسائل العلمية من ماجستير ودكتوراه ، منهم رسالة الماجستير الخاصة بى، ويعد من القلائل المختصين فى هذا المجال ، وساعد أكثر من بلد عربى فى إنشاء قاعدة علمية نووية ، إنه ليس بمجنون ، إنه فقط تخلى عن عقله ، إغتال عقله بنفسه قبل أن يغتلوه هو نفسه

داعب أحمد أخاه سعيداً وهتف قائلاً : « دكتور شلتوت أعقل وأنبغ إنسان فى العالم » .

إعتدل سعيد فى جلسته وقال : أريد أن أعرف لماذا أنشـأوا قسـم الفزيـاء النوويـة فى كليـة العلوم ؟ أنا حاصل على ماجستير فى الطاقة النوويـة ، ولم أسـتطع حتـى الأن أن أحصـل عـلى عمل فى هيئة الطاقة الذرية ، وبعد خمس سنوات من الإنتظار للقوى العاملـة ، أُعـيّن فى مرفـق نظافة القاهرة ، درست تسعة سنوات كل شئ عن الذرة ، عرفت أكثر مما عرفه أينشتاين ذاته ، ومع ذلك مازلت كماً مهملاً ، لم أصل لدرجة نيترون فى نواة فى ذرة ، رد عليه أحمد قائلاً :

ـ ربما أنشأوا هذا القسم من أجل الإسـتخدمات السـلمية للطاقـة النوويـة، فى الطـب وفى الزراعة ، وتوليد الطاقة

ـ لماذا نحن فقط نستخدم الطاقة النووية ، إستخداماً سلمياً ، وغيرنا

يمتلك من الأسلحة النووية ما يحقق له الردع والتفوق ، فى أية معركة ، لماذا يكون هناك « خيار وفاقوس » ؟

ـ فكرتنى بالخيار ، أصل العرب جميعاً إتفقوا ، ولأول مرة يتفقون، بأن يكون السـلام ، هـو الخيار الإستراتيجى

ـ خيار إستراتيجى ، خيار مخلل ، كله خيار

ـ هل ستذهب يوم الجمعة لزيارة الدكتور شلتوت فى مستشفى النيل للصحة النفسية ؟

ـ قلت لك أكثر من مرة ، إن لا أحد يعلم بوجود الدكتور شلتوت هنا فى القاهرة ، وهذا من أجل سلامته ، أود ألا تتحدث مع أى إنسان عن هذا الموضوع ، لقد خصنى أنا فقط دون أهله وأصدقائه، بمكان وجوده ، نعم سوف أزوره يوم الجمعة ، لأنه طلب منى أن أحضر له أوراقاً وأقلاماً

ـ أتظن أن الدكتور شلتوتاً قد إتخذ قراراً بكتابة قصة حياته ؟

ترك سعيد الغرفة دون أن يرد على أحمد ، وأخذ طريقه إلى المطبخ، لقد تذكر أنه جوعان ، ومعدته لم يقربها الطعام منذ الصباح.

2

صباح الجمعة بدأ سعيد يومه بحمام دافئ ، ثم توضأ وتعطر وخرج من منزلـه متوجهـاً إلى مسجد حسين صدقى بالمعادى ، حتى يكون بالقرب من المستشفى.

دخل سعيد توفيق المصحة ، وكان الدكتور شـلتوت يجلـس عـلى أريكـة خشـبية فى أحـد اركان الحديقة الملحقة بالمستشفى ، صافحه وتبادلا التحية ، وأخـذا يتحـدثان فى أى شـئ ، وكل شئ ، من حالة الطقس ، للحرب الدائرة فى أفغانستان ، حـرب الإرهـابيين الكبـار ضـد الإرهابيين الصغار .

أعطى سعيد توفيق الأوراق والأقلام إلى الدكتور شلتوت ، ثم هم بالإنصراف ، عـلى وعـد بالزيارة الجمعة القادمة ، وقد لاحظ سعيد نظرة إشفاق فى عين الدكتور شلتوت .

خرج سعيد توفيق من المصحة وهو يفكر فى نظرات الإشفاق التى رآها فى عيـون الـدكتور شلتوت ، هل كان مشفقاً عليّ ؟ ربما لأنه أفضل منى حالاً ، ذهب إلى المصحة بمحض إرادته ، فضل موت العقل ، عن موت الجسد ، إختار الحياة مع بعض المجانين ، ولكـن أنـا أعـيش رغماً عنى ، فى عالم كله جنون ، له الحق أن يشفق عليّ.

عاد سعيد إلى المنزل ، كانت الساعة تقترب من الثالثة عصراً ، والشيخ محمد متولى الشعراوى مازال يشرح فى الآية الثالثة والثلاثين من سورة البقرة « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس آبى واستكبر وكان من الكافرين » دخل سعيد حجرته وهو يفكر فى معنى الآية الكريمة ، وحدث نفسه : إذا كان الله عز وجل أمر الملائكة بأن تسجد لآدم ، هل هذا يعنى أن البشر أفضل من الملائكة ؟

طلبت أم سعيد منه أن يساعدها فى إحضار بعض الأشياء من المطبخ إلى طاولة الطعام ، فسألها عن أخته سعاد ، ولماذا لم

تساعدها فى تحضير الطعام ، فقالت والدته : لقد ذهبت إلى صديقتها هدى ، لنقل ما فاتها من محاضرات بالأمس ، لأنها كانت معى بالأمس عند الطبيب .

توضأ الأستاذ توفيق وقام لأداء صلاة العصر ، عادت سعاد من الخارج ، وضعت ما تحمله من أوراق على مكتب صغير فى حجرتها، ثم سألت والدتها عما إذا كان هناك شئ ناقص لتتمه ، أجابتها والدتها بأن كل شئ على ما يرام ، البركة فى الدكتور سعيد، رد سعيد من داخل حجرته : دكتور ....ربما ، بعد عمر طويل .

فرغ الأب من الصلاة وتوجه إلى حجرة الطعام ، وجـد الكـل فى إنتظـاره ، إلا أحمـد الـذى دخل لتوه من الخارج معلناً إعتذاره عن التأخير .

إلتفت الأسرة حول مائدة الطعام ، بدأ الأب بالبسملة وتابعته الزوجة والأبناء ، قال أحمـد : أيها السادة أدعوكم وأن نقف دقيقة حداداً ، عـلى المأسـوف عليـه الـديك الرومـى ، ضـحك الجميع ثم أتموا الطعام فى جو أسرى جميل .

دخل سعيد توفيق حجرته ، وفتح كتاباً كان مدسوساً بين أوراقه كشف بالمراجع الخاصـة برسالة الدكتوراه ، وعلى هامش الورقة قيمة الأسعار ، التى قدرت بما يزيد عـن الثلاثـة ألاف من الجنيهات ، بعد قليل من التفكير توصل سعيد لقرار لا رجعة فيه ، لا مراجع ولا دكتـوراه ، وكفى ما أنفقه عليه والده حتى حصل على الماجستير ، وأن أحمـد وسـعاد أولىّ بكـل ملـيم ، ولابد من بحث عن عمل آخر ، حتى أرفع الحمل عن كاهـل والـدى ، لأن العمـل فى مرفـق نظافة القاهرة غير مُجدٍ ، وهناك لا يفعل شيئاً غير قـراءة الجرائـد اليوميـة، وحـل الكلمـات المتقاطعة .

فى الصباح كالعادة قام بشراء الجرائد الثلاثة ، وبدأ البحث مـن جديـد فى أبـواب « وظيفـة خالية » كان من بينها وظيفة مـدرس مسـاعد فى ذات تخصصـه فى جامعـة جنـوب الـوادى ، إستبشر خيراً ، وعقد العزم على السفر إلى قنا لتقديم أوراق إلتحاقه بالوظيفة .

فى صباح اليوم التالى للإعلان كان سعيد توفيـق ومعـه حافظـة الأوراق والشـهادات أمـام مدير شئون العاملين فى جامعة جنوب الوادى .

إستقبله الرجل بوجه بشوش ، وقال بأدب جم : نأسف يا ولدى، فالوظيفة شُغلت بالفعل أول أمس ، أرتسمت على وجه سعيد توفيق جميع علامات التعجب والإستفهام ، وقال بصوت لا يخلو من الضيق : كيف حدث هذا ؟ وإعلان الوظيفة كان فى جريدة الأهرام بالأمس ، طلب الرجل من سعيد توفيق أن يستريح ، وقال له : إعلان الأمس ، كان إعلاناً صورياً ، إعلاناً من أجل إتمام مسوغات التعيين الخاصة بأحد المحظوظين ، حتى يكتمل الشكل القانونى ، أنا آسف يا ولدى لأنى لا أستطيع عمل أى شئ من أجلك.

خرج سعيد توفيق من مكتب مدير شئون العاملين وهو يندب حظه العاثر ، وأبدى ندمه على الوقت والمال الذى أنفقه من أجل وظيفة خيالية وليست خالية ، إستغفر ربه وتذكر قول جدته « إن الكلب الجوال خير من الأسد الرابض ».

إستقل سعيد توفيق القطار المتجه إلى القاهرة وغط فى نوم عميق، شعر بالملل بسبب توقف القطار أكثر من مرة ، وسمع أحد الركاب يسأل آخر بجواره ، لماذا سمى هذا القطار بالقشاش ؟ فأجابه الأخر لأنه يلم أى يقش كل الركاب من على الطريق ، إبتسم سعيد ثم غط فى النوم مرة أخرى ، لأن الطريق مازال طويلاً .

3

شعرت سعاد بألم شديد فى الجانب الأيمن أسفل البطن ، تم نقلها إلى مستشفى عين شمس التخصصى ، تم تشخيص الحالة بأنها إلتهاب حاد فى الزائدة الدودية ، ولابد من إجراء جراحة عاجلة ، خشية من إنفجارها .

إتصل سعيد بصديقه الدكتور رامى أسعد ، الذى يعمل طبيب تخدير بالمستشفى ، الذى جاءه على وجه السرعة ، تم نقل سعاد على الفور إلى غرفة العمليات .

قام الدكتور رامى بتخديرها وتحضيرها ، وإستمر معها حين إنتهاء الجراحة ، بعد ذلك خرج ليطمئن أفراد العائلة ، ثم عاد مرة أخرى إلى غرفة الإفاقة ، حتى إستعادت سعاد وعيها ، أمسك بمعصم يدها ونظر فى ساعة يده ، ثم قال : الحمد الله على سلامتك يا أنسة سعاد، أنا الدكتور رامى سعيد ، صديق شقيقك سعيد ، أنت الأن بخير ، سوف أراكِ فيما بعد .

دخل أفراد العائلة إلى غرفة سعاد ، وإتجه الأستاذ توفيق إلى الحسابات لدفع المبلغ المطلوب ، أصرت أم سعيد على المبيت مع سعاد ، وأنصرف باقى أفراد العائلة إلى المنزل .

فى اليوم الثانى كان الدكتور رامى أسعد فى غرفة سعاد ومعه الجراح الذى أجـرى العمليـة الجراحية ، للإطمئنان على حالتها ، سألته والدتها : هل من الممكن أن تتناول سعاد أى طعـام ؟ لأنها لم تتناول أى طعام منذ الأمس ، قال الطبيـب وهـو يكتـب بعـض الأدويـة فى السـجل الخاص بسعاد : من الممكن قليل من الشاى الخفيف مع قطعة من خبزالتوست .

فى المساء عاد الدكتور رامى مرة أخرى لغرفة سعاد ، جلس على المقعد المجاور لفراشـها ، ثم قال : أريد أن أكرر عليكِ مرة أخرى ، أنا الصديق الوحيد لشقيقك سعيد ، لـذلك سـوف اتحدث معكِ بصراحة، أنا أريد الإرتباط بكِ ، سوف أمر عليكِ غـداً صـباحاً ، إذا كـان ردكِ بالرفض ، أرجو منكِ ألا تخبرى أحداً بذلك ، حتى لا تتأثر علاقتى بسـعيد ، خـرج الـدكتور رامى مسرعاً من الغرفة ، تاركاً سعاد فى حالة من الذهول .

فى صباح اليوم التالى كانت سعاد تحاول السير بمساعدة عصا بمقبض فى غرفتهـا ، عنـدما إلتفتت إلى الخلف وجدت أمامها ، الدكتور رامى يحمل باقة من الزهور البيضـاء ، قـال وهـو يعطيها الزهور : يمكنك الخروج اليوم ، وسوف أحضر إليكِ فى المنزل بعد ستة أيـام ، لفـك خيوط الجراحة ، وإذا إنتظرتِ للثالثة عصراً ، سوف أقوم بشرف توصيلك إلى المنـزل ، قبـل أن يهم الدكتور رامى بالخروج ، قالت سعاد : جميلٌ جداً الإرتباط بشـخص مثلـك ، وسـوف تزداد صداقتك بشقيقى ، فى حركة غير إرادية ، أمسك الدكتور رامى يد سعاد وقبّلها ، ثم قـال سوف أتصل بسعيد لأخبره بذلك .

تمت الخطوبة فى نطاق الأسرتين ، فى منزل الأستاذ توفيق ، توفيراً للنفقات ، وقد تم الإتفاق على عمل حفلة مناسبة فى الزواج ، قبّلت أم سعيد إبنها وهى تقول : أريد أن أرى أولادك قبل أن أموت، قال سعيد : طول العمر لكِ يا أمى ، كل شئ مكتوب .

جلس سعيد وحيداً فى شرفة المنزل ، بعد أن نظر حوله وتأكد من أن والده لا يراه ، أخرج سيجارة وشرع فى تدخينها ، وهامت الأفكار تتطاير مع الدخان حوله ، كادت أن تعصف به ، فهو مازال يدور داخل مربع العوز ، المرتب الذى يحصل عليه ، يكفيه بالكاد ، للصرف على المواصلات والسجائر ، ومازال والده حتى الآن يتكفل بالملبس ، والمأكل ، ظلت حياتى ثابتة ، الشئ الوحيد الذى يتقدم هو العمر ، لقد قاربت على الثلاثين ،لا بيت ، ولا زوجة ،ولا أولاد ، متى أستطيع أن أبدأ حياتى ؟ ألا تكتفى الدولة بحرمانى من عمل يتناسب مع مؤهلاتى ؟ بل رفضت جهة العمل الإعتراف بالماجستير، كنت أظن بأن الماجستير سوف يزيد من فرصتى فى الحصول على عمل أفضل ، أو مرتب أكبر ، لكن ظل الوضع على ما هو عليه ، « وعلى المتضرر ضرب رأسه فى أكبر حجر ، من أحجار هرم خوفو » .

4

ذهب الأستاذ توفيق إلى عمله فى وزارة الأوقاف، حيث إنه يشغل منصب المدير المالى لأملاك الوقف وهو المسؤول عن الإشراف والإدارة والتفتيش للوقف.

كان فى إنتظاره فى مكتبه القمص ميخائيل للتحدث معه بخصوص ملف الأوقاف القبطية ، والتى تم وقفها منذ عام 1952 ، وحتى الآن مازال بعضها تحت يد وزارة الأوقاف ، قال بعد ما إرتفعت نبرة صوته : على ما أعتقد إن الكنيسة هى الأولى بإدارة أوقافها ، للصرف منها على الكنائس والأديرة ، وعلى فقراء الأقباط ، قال الأستاذ توفيق : الملف مازال فى مكتب الوزير ، وهو ملف فى غاية التعقيد ، بسبب بيع بعض هذه الأوقاف ، والبناء على البعض الأخر لذلك يدرس الوزير كيفية إسترداد هذه الأوقاف ، أو تعويضكم ،هم القمص ميخائيل واقفاً وهو يقول : هذا هو الوزير الخامس ، الذى يعرض عليه هذا الملف، ولم يبت فيه حتى الآن ، عبد الناصر قام بنزع ملكية أراضى أوقاف البطريركية والأديرة القبطية ، ثم قام بتوزيعها على الفلاحين المسلمين ، عن طريق قانون الإصلاح الزراعى ، وكأن الأقباط ليس فيهم فقراء أو فلاحون ، فى حقيقة الأمر أنا لاأجد عدالة ونزاهة فى دراسة هذا الملف .

طلب الأستاذ توفيق من الساعى أن يحضر كوباً من عصير الليمون الطاذج ، للقمص ميخائيـل ، وقال له : تفضل يا أبانا بالجلوس ، وسوف أرسل خطاب إستعلام من الـوزارة عـن هـذا الملـف ، وأتمنى فى المرة القادمة ، أن يكون لديّ رداً إيجابى شاف ، أنا أعلم أن هذا الملف قد مر عليه أكثـر من عشرين عاماً ، ولكن أنا دورى ينتهى بإرسال الملف إلى الوزارة ، هل تريد الحـل النهـائى لهـذا الملف ؟ قال القمص ميخائتل متعجباً : بالتأكيد ، نعم أريد حل هذا الملف ، قال الأسـتاذ توفيـق : أطلب من البابا شنودة التدخل لدى وزير الأوقاف ، يعد عدة أيـام تقـيم الكنيسـة إفطـار « المحبـة الوطنية » وسوف يحضره وزير الأوقاف .

ذهب الأستاذ توفيق إلى مدير إدارة الأملاك ، كى يعرض عليـه بعـض الملفـات ، قـال لـه المدير : إبشر يا حاج توفيق ، قد وقع عليك الإختيار تمثيل بعثـة الإشـراف عـلى الحـج هـذا العام ، لا تنس أن تاتى لى بجلباب ماركة « الدفة » .

فى طريق العودة للمنزل ، ذهب الأستاذ توفيق إلى صديقه فى باب اللـوق ، والـذى يمتلـك مصنعاً صغيراً للحلويات الشرقية ، وأخبره بأنه ذاهب إلى الحـج هـذا العـام ، ضـمه صـديقه وقبّله وقال : حج مبرور بإذن الله ، ثم طلب من أحد العاملين أن يحضر صنيتين من البسبوسة ، إحداهما بالقشدة والأخرى بالمكسرات ، أعطاهما لصديقه توفيق ، الـذى إتجـه مباشـرةً إلى المنزل .

كانت أم سعيد فى المطبخ تعد الطعام ، دخل عليها الأستاذ توفيق وقبّلها وقال : الحمـد لله ، وقع عليّ الإختيار فى بعثة الحج هذا العام، سوف أزور بيت الله يا أم سعيد ، وأقوم بالصـلاة فى الروضة الشريفة، وأقبل قبر الرسول .

مسحت أم سعيد يديها فى جلبابها ، وأحتضنت زوجها وبكت ، حاولـت إخـراج زغـرودة لكنها لم تستطع ، لكنها خرجت متقطعة ، وجاء على أثرها أفراد العائلة إلى المطبخ ، لإستطلاع الأمر ، قبّلوا جميعاً والدهم ، ثم توجهوا إلى حجرة الطعام .

رجع أحمد توفيق فى الثالثة صباحاً ، وهو فى حالة غير طبيعية ، كان يبدو عليه فقـدان جزئـى للوعى ، حدثه سعيد قائلاً : ما بك يا أحمد ، هل تعاطيت المخدرات ، أم إحتسيت الخمر ، إذا علم والدك بما فعلته ، سوف يكون رد فعله غير متوقع ، خلال أيام سوف يسافر لأداء فريضـة الحج ، هل تريد وأن تخيّب أمله فيك ؟ كنت دائماً تعارضـنى بسـبب التـدخين ، وأنـت الأن تدخن مخدر الحشيش ، لماذا ؟ أجهش أحمد بالبكاء وهو يقـول : خمـس سـنوات مـرت عـلى إنتهاء فترة التجنيد الإجبارى ، وأنا مازلت محامياً مع وقف التنفيـذ ، هـل تعلـم إننـى أذهـب يومياً إلى المحاكم ، من أجل العمل بالقطعة ، تأجيل قضية ، أو كتابة عريضة دعوى لمخالفـة مبانٍ ، وذلك من أجل جنيهات معدودة ، لقد مللت من مد يـدى كـل شـهر لوالـدى ، سـبعة وعشرين عاماً ، ومازلت عالة على والدى ، ماذا أفعل ؟ .

لم يجد سعيد كلاماً يرد به على أخيه ، فانسحب بهدوء وذهب إلى فراشه ومعـه خيبـة الأمـل فى الغد .

5

يوم الجمعة قام سعيد مبكراً من نومه ، توضأ وإرتدى ملابسه ، وأخذ طريقه للخروج ، قام بشراء بعض المقرمشات والجرائد، والمجلات الأسبوعية من أجل الدكتور شلتوت ، الـذى ذهب لزيارته بعد الصلاة .

لاحظ الدكتور شلتوت لمسة حزن وقلق فى عينيى سعيد ، فسأله عن أسباب قلقه وشـروده ، إبتسم سعيد توفيق ووضع يده بحنان فوق كتف الدكتور شلتوت وقال : لا شـئ ....لا شـئ على الإطلاق ، رد الدكتور شلتوت عليه قائلاً : أنت بمثابة ولدى ، والوالد دائماً يشـعر بحالـة ولده ، بالله عليك ما الذى يشغل بالك ؟ .

خفض سعيد توفيق رأسه لأسـفل ، وقـال بصـوت خجـول : المراجـع العلميـة الخاصـة برسالة الدكتوراه ، ثمنها باهظ ، وفوق طـاقتى وطاقـة والـدى ، لهـذا قـررت أن أكتفـى بمـا وصلت إليه من تعليم .

ضحك الدكتور شلتوت فبرزت أسنان صفراء مهملة ، وقال وهو مازال يضحك : هذا هـو سبب كربك ، أعطنى أسماء المراجع التى تريد شراءها ، بعد أن قرأ أسماء المراجـع العلميـة قال : عال ... عال جدا .

طلب من سعيد أن ينتظره دقائق ، عاد بعدها ومعه مفتاحان فى حلقة معدنية ، وقال لسـعيد توفيق هذا هو مفتاح منزلى ، والمفتاح الثانى خاص بغرفة مكتبى ، والعنوان أنت تعلمه جيداً ، سوف تجد كل هذه المراجع فى مكتبتى ، قد أحضرتها معى من إيطاليا .

شكر سعيد توفيق الدكتور شلتوتاً الذى إحتضنه وقال بصوت به مسحة مـن الحـزن : أنـا وحيد فى هذه الدنيا بعد وفاة زوجتى فى حادث تصـادم فى رومـا ، ولم أُرزق بـأولاد ، وانـت لى بمثابة الأبن .

تهلل وجه سعيد شلتوت ، وبحركة غير إرادية إنحنى ليقبل يد الدكتور شـلتوت ، ولكنـه لم يمكنه من ذلك ، وأخذ رأسه فى صدره وقال : الوفاء أصبح شـيئاً نـادراً فى هـذا الزمـان ، بـل معدوماً ، لذلك جعلوه من المستحيلات الثلاثة « الغول والعنقاء والخل الوفي » .

إنتزع سعيد توفيق رأسه بهدوء من بين طيات ضلوع صدر الـدكتور شـلتوتاً وقـال : أود أن أكون عند حسن ظنك بى .

ودع سعيد توفيق الدكتور شلتوت ، وغادر المصحة متوجهاً إلى منزله .

إستقل سعيد توفيق الأتوبيس ، وضع يده فى جيبه ليعطى المحصل ثمن التـذكرة ، لمسـت يده المفتاحين ، فى هذه الأثناء سأله المحصل « على فين يا حضرة ؟ » فكر سعيد توفيق قليلاً ، ثم قال : المحطة القادمة .

نــزل مــن الأتــوبيس وعبــر نهــر الطريــق متوجهــاً للإتجــاه العكســى وهــو يقــول : تاكسى....تاكسى ، وقفت أمامه سيارة متهالكة يقودها سائق ليس بأحسن حال مـن سـيارته ، طلب سعيد توفيق من السائق أن يتوجه به إلى مصر الجديدة .

6

وصل سعيد توفيق إلى منزل الدكتور شـلتوت ، أخـرج أحـد المفتـاحين وعـالج بـه بـاب المنزل ، كان المنزل مظلماً ، والأتربة تملأ أرجاءه ، بسبب غلقه لأكثر من عامين .

حاول سعيد توفيق إنارة أحد المصابيح ، لكن دون جدوى ، فالمنزل بدون كهرباء وماء ، لقد رفع عدادا الكهرباء والماء من قبل الأجهزة المختصة لعدم سداد الفواتير .

فتح سعيد أحد النوافذ بصعوبة بالغة ، وجزى بقسط وافر من الأتربة المتراكمة ، توجـه إلى غرفة المكتب التى يعرفها جيداً ، كثيراً ما إستقبله فيها الدكتور شلتوت عندما كان يزوره .

عالج سعيد توفيق باب غرفة المكتب ودخل ، كانـت فى إنتظـاره مفاجـأة ، وجـد الكتـب متناثرة فى أرجاء الغرفة ، وأدراج المكتب مهشمة ، والأوراق مبعثرة ، لكن الشئ الغريـب إن محتويات المنزل من تحف وأجهزة كهربائية وأشياء أخرى ثمينة لم يمسها أى ضرر .

لذلك تأكد بأن دخول المنزل ليس بغرض السرقة ، لكن لماذا أغلقوا الغرفة مرة أخرى بالمفتاح ؟ وإذا كانوا يرغبون فى أن لا يعلم أحد بأنهم دخلوا المنزل ، فلماذا تركوا كل هذه الأشياء مبعثرة بهذه الطريقة ؟ ربما أنهم لم يفرغوا من عملية البحث ، لكن على ماذا يبحثون ؟ سؤال إجابته لدى الدكتور شلتوت حاول سعيد توفيق أن يعيد الكتب والمراجع إلى أرفف المكتبة ، ووضع الأوراق بعضها فوق بعض دون ترتيب ، زحف الليل بسواده وعتمته ، فغادر سعيد توفيق منزل الدكتور شلتوت ، بعد إحكام غلقه جيداً ، تاركاً النافذة مفتوحة لتغيير الهواء فى المنزل.

فى طريق العودة شعر سعيد توفيق بأقدام تتبعه ، نظر خلفه فرأى

رجلاً فى العقد الرابع ، يرتدى معطفاً أسود ، وقف لتوه متذرعاً بإشعال سيجارته ، وصل سعيد توفيق لمحطة الترام ، أخذ مكانه فى الجلوس ، ولمح وجود الشخص الذى كلن يتتبعه ، فكر سعيد توفيق قليلاً ، ثم قفز من الترام أثناء تهدئته فى الميدان ، مخلفاً وراءه متتبعه داخل الترام .

وصل سعيد توفيق إلى منزله فى ساعة متأخرة من الليل ، كان والده ينتظره فى الشرفة المطلة على الشارع الرئيسى ، بعد أن إطمأن الأستاذ توفيق بعودة سعيد دلف إلى فراشه .

دخل سعيد مباشرة إلى المطبخ يشكو جوعاً لم يشعر به من قبل ، إستيقظت والدته على صوت تلاطم الأوانى ، فأعدت له العشاء ، إلتهم الطعام وكأنه يصارعه ، ثم حمد الله وذهب إلى فراشه مناجياً النوم أن يزوره ، لكن النوم كان عصياً عليه فى هذا المساء ، وكيف ينام وعقله لم يستطع حتى الآن إستيعاب ما حدث فى منزل الدكتور شلتوت ، وهل يبلغه بما رأى ؟ ثم تذكر شيئاً مهماً ، إنه لم يحضر المراجع التى ذهب من أجلها ، لقد تركها فوق المكتب ، وإنهمك فى ترتيب المكتبة ، وجمع الأوراق المبعثرة فى كل مكان ، لكنه قرر عدم الذهاب إلى هناك مرة آخرى ، خوفاً من المجهول ، والرجل الذى كان يتتبعه ، إنه رجل قوى البنيان ، يشبه مصارعى الثيران بشعره الطويل الغير مرتب ، ثم قفز إلى عقله شئ خطير ، إن هذا الرجل أجنبى ، ملابسه الغريبة ، وحذاؤه الذى يشبه أحذية رعاة البقر ، والرباط الموجود فوق رأسه ، من يكون ؟ وعما يبحث ؟

وهل الدكتور شلتوت على علاقة بجهات أجنبية ؟ وهل موت زوجته الغامض فى إيطاليا له علاقة بذلك ؟ ووجوده فى المصحة النفسية ،هل من أجل الإختفاء ؟ أم من أجل التهرب من العقاب القانونى ، بإدعائه الجنون ؟ قطع سيل الأسئلة التى كادت أن تقتله فكراً طرق مستمر على باب المنزل .

7

خرج سعيد توفيق من حجرته متجهاً إلى باب الشقة ، وجد والده قد سبقه إليه ، وفتحه ، ووجد أمامه ثلاثة من الرجال فى ملابس أنيقة ، وعندما سألهم عن هويتهم ، وماذا يريدون فى هذه الساعة المتآخرة من الليل ، قال أحدهم بكل هدوء : نحن من جهة أمنية ، ونريد التحدث مع الأستاذ سعيد ، قال سعيد وهو متخوف ، أريد وأن أرى هويتكم ، أنا لن أتحدث مع أحد .

قال أحد الرجال الثلاثة : ثق بنا يا أستاذ سعيد ، نحن هنا من أجلك، شك سعيد للحظات إنهم شركاء للرجل الأجنبى الذى كان يتتبعه ، لاحظ ذلك ضابط المخابرات وقال له : نحن هنا من أجل حمايتك من عصابة دولية ، ثم إن الدكتور شلتوت قد أعلمنا بكل شئ، بالمراجع والمفاتيح التى أعطاها إليك ، ولقاء كل يوم جمعة ، على ما أعتقد إنك الأن مطمئن لنا ، أرجوك إرتد ملابسك ، نحن فى إنتظارك أسفل المنزل .

إطمأن سعيد توفيق لهؤلاء الأشخاص ، وتأكد بأنهم يتبعون جهة أمنية ما .

بعد أن جلس فى المقعد الخلفى من السيارة بجوار أحد الرجال الثلاثة ، قام بوضع عصابة سوداء على عينيه ، لم يعترض سعيد توفيق على هـذا الإجـراء ، سـارت السـيارة بسـرعة فائقـة قاطعة طرق وليل القاهرة الساحرة ، وإتجهت نحو المقطم ، حتـى وصـلوا أمـام بنايـة كبيـرة يحيطها سور مرتفع ، وغابة من الأشجار الضخمة .

ساروا جميعا على ممشى طويل حتى وصلوا أمام الفيلا الغامضة رفعت العصـابة مـن فـوق عينه ، وبادره أحد الضباط بالإعتذار عما حدث ، وقال له هذا إجراء متبع من أجـل سـلامتك أيضاً ، نحن أتينا بك إلى هنا ، لأن ما سوف نحدثك به خاص بأمن الدولة المصرية .

نحن نعلم ما حدث لك اليوم فى منزل الدكتور شلتوت ، لأن المنزل تحت المراقبة ، دقيقة بدقيقة ، ونعلم بزوار المنزل ، وكنا معك فى الترام ، ورأيناك ، وانت تقفز منه ، وكـان وجودنـا من أجل حمايتك ، وتتبع ذلك الرجل الأجنبى .

سأل سعيد توفبق ضابط المخابرات ، هل الدكتور شلتوت متورط فى شـئ مـا ؟ وعـن أى شئ يبحث هؤلاء الغرباء ؟ أجابه الضابط بأن الدكتور شلتوت رجل وطنى ، وفوق الشـبهات ، وإنه موجود فى المصحة من أجل حمايته ، أما عن إجابة السؤال الثانى ، فمازال الوقت مبكراً ، كى نعلمك بكل شئ ، المهم الآن أن تعلم بأنـك تحـت أعيننـا ، وأن كـل خطـوة تخطوهـا مرصودة بدقة .

فى هذا المظروف يوجد مفتاح وعنوان شقة فى وسط المدينة ، سوف تنتقل إليها ، تحسباً لأى شئ ، لا نريد أن يحصل هؤلاء الغرباء عن أى معلومات ، تؤدى إلى معرفة شخصيتك الحقيقية ، أو عنوان منزلك ، حتى لا يسببوا أى مشاكل لأهلك ، تذكرت شيئاً مهماً ، المنزل الجديد به مخرج سرى، من داخل بدروم العمارة ، عبارة عن سرداب تحت الأرض ، له فتحة داخل منزل فى حارة جانبية ، وهذا سوف تستخدمه فقط ، عندما تنوى زيارة الدكتور شلتوت .

إطمئن تماماً ، المنزل الجديد مراقب بكاميرات سرية ، حتى نتمكن من التدخل فى الوقت المناسب ، توجد قوة بالقرب منك ، لا داعى لأن تشغل نفسك بمكان وجودهم ، بعد يومين سوف يأتى شخصان لإصطحابك إلى مكانك الجديد ، لا تحاول أن تحضر أى شئ يدل على شخصيتك الحقيقية ، وسوف نعطيك بطاقة هوية بإسم مستعار.

الآن من فضلك سوف نضع على عينيك العصابة من جديد ، سوف تعود إلى منزلك ، أرجو أن ما تم بيننا يكون فى طي الكتمان ، إذا سألك والدك عن سبب الزيارة ، قل له إنها إجراءات أمنية ، من أجل إلحاقك بهيئة الطاقة الذرية ، وعن تغيبك عن المنزل سوف نرسل لك حفظ الله وسوف نكون على إتصال بك .

8

خرج سعيد توفيق من الباب السرى ، إستقل سيارة تاكسى وطلب من سائقها التوجه إلى المعادى ، توقف قبل المصحة بمسافة طويلة، بناء على توجهات ضابط المخابرات ، كى يلاحظ هل هناك من يتبعه ، ثم توجه بعدها إلى المصحة .

كان الدكتور شلتوت فى مكانه المعتاد ، وبين يديه ورقة من جريدة بالية ، كان يقرأها بإهتمام ، بعد تبادل تحية الصباح طلب الدكتور شلتوت من سعيد توفيق أن يجلس بجواره ، سأله ماذا يقرأ؟ قال الدكتور شلتوت : مقالة قديمة للمرحوم مصطفى شردى ، كان يتحدث فيها عن البنود السرية لمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل ، وهل مصر كسبت أم خسرت ، بتوقيع تلك الإتفاقية ؟ وهل ينجح ساسة مصر فيما فشل فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ هل ينجح ساسة مصر مع قتلة الأنبياء والرسل ؟

دعنا من هذا الآن ، هل حصلت على المراجع التى تحتاج إليها ؟ وهل أغلقت باب المنزل جيداً ؟ صمت سعيد توفيق للحظات ، وكأنه يستجمع كل قواه ، ثم بدأ فى سرد كل ما حدث ، من بعثرة المراجع وخلط الأوراق ، وتتبع الرجل الأجنبى ذى المعطف الأسود ، ونجاحه فى الهروب منه .

ثار الدكتور شلتوت وأخذ ينتفض فى مكانه ، ثم قال : مازالوا يتتبعوننى أولاد الكلب ، ماذا يريدون منى ؟ ماذا فعلت لهم ؟ ألم يكفهم ما فعلوه بزوجتى ، أمسك سعيد توفيق بكتفيّ الدكتور شلتوت محاولاً تثبيته فى مكانه وتهدئته ، ثم سأله من هم ؟ أومأ الدكتور شلتوت برأسه لأسفل وقال : سأقص عليك كل شئ ، بشرط أن يكون ذلك سراً بيننا .

أنا علمت أمس بزيارة ضباط المخابرات لك ، وهم الذين طلبوا منى أن أقص عليك كل ما حدث لى فى إيطاليا ، وكيف أغتيلت زوجتى ؟ ولماذا أنا هنا الآن ؟ وعن أى شئ يبحثون ؟.

بدأ الدكتور شلتوت يتحدث وكأنه يجتر ألامه وأحزانه ، رجعت به الذاكرة إلى تلك الأيام ، هل تتذكر يا سعيد منذ عامين ، وبعد مناقشة رسالتك ؟ قلت لك : إننى مدعو لحضور مؤتمر علمى لمناقشة الإستخدمات السلمية للطاقة النووية فى جامعة لاساببينزا فى روما، وأن زوجتى سوف تصحبنى فى هذه الزيارة ، لإجراء بعض التحاليل والفحوصات ، رد سعيد توفيق : نعم أتذكر ذلك جيداً ، وقد قلت لى بأنك سوف تحضر لى هدية بمناسبة حصولى على الماجستير بتفوق ، ولكنك أخلفت وعدك .

إبتسم الدكتور شلتوت ، ثم بدأ فى الحديث مرة أخـرى : كـان فى إنتظارنـا فى مطـار ليونـاردو دا فينشى الدكتور كلاوديو ديزيديرى وزوجته ، وهو صديق قديم ، وبيننا بعض الأبحاث المشـتركة ، قد تعرفت عليه فى أمريكا أثناء حصولى على درجة الدكتوراه من جامعة برينستون بولاية نيوجيرسـى ، وكان معى فى نفس المجموعة البحثية للـدكتور ريتشـارد فاينمـان ، وكـان البحـث يـدور حـول «ميكانيكا الكم».

وفى أحد الأيام تحدث معى عن الدكتور مصطفى مشرفة ، وهل فعلاً مات مسموماً ؟ كان ردى لا أعرف ، هذا موضوع مرت عليه سنون طويلة ، بعدها باغتنى بسؤال لم أتوقعـه ، لمـاذا أغتيلت سميرة موسى ؟ وهل النظرية التى توصلت إليها ، لصناعة قنبلة نوويـة مـن المعـادن الرخيصة ، بعد تفتيتها إلى ذرات ، هل هذا كان سبباً فى إغتيالها ؟ .

فى ذلك اليوم لم أستطع الرد عليه لسببين أولهما أنـى لا أمتلـك أى معلومـات عمـا قالـه ، وثانيهما خشيت أن يكون تابعاً لأى جهاز مخابراتى ، خاصة الموساد ، معذرة يا سعيد سوف أعود مرة أخرى لهذه القصة فى وقت لاحـق ، بعـد أن إسـتقبلنا فى مطـار ليونـاردو دا فينشـى إصطحبنا أنا وزوجتى إلى فندق فراتينا ، وهو فندق ممتاز ، وقريب جداً من الجامعة .

ودعنا الدكتور كلاوديو ، على وعد بلقاء فى المساء ، كى يحتفى بنا .

9

فى الثامنة مساءً كان الدكتور كلاوديو وزوجته السيدة فلورا ينتظران نزولى أنا وزوجتى لبهو الفندق ، تبادلنا جميعاً التحية ، ثم أقلتنا السيارة وذهبنا إلى وسط المدينة ، وبالتحديد شارع فينيتو ، إلى مطعم ومقهى تايم .

طلب الدكتور كلاوديو من النادل أن يأتى بقائمة الطعام ، ثم طلب زجاجة من النبيذ الأحمر المعتق ، وأخرى من المياه المعدنية .

إخترنا جميعاً وجبة من فواكه البحر والأسماك ، وفاتحات الشهية، وبعد تناول العشاء ، ذهبت زوجتى وزوجة صديقى إلى التواليت ، لإصلاح ما تركته السنون من أثار على بشرتهما ، وأكملنا نحن حديثنا حول آخر التطورات على الأبحاث المشتركة بيننا ، والنتائج التى توصلنا إليها ، وكانت إلى حد كبير مبشرة ، وتدفعنا قدماً إلى الأمام ، ورغم أن الأبحاث كانت تتم بصورة سرية ، نظراً لخطورتها ، إلا أن الدكتور كلاوديو قد أشرك طالب معه حاصلاً على الدكتوراه حديثاً ، كى يساعده فى إستخراج النتائج وتحليها .

قد أثارالموضوع غضبى وقتها ، وقلت له : أخشى أن تتسرب بعض المعلومات عـن هـذه الأبحاث ، وقتها سوف تكون النتائج وخيمة ، وقد يتم سرقة هذه الأبحاث التى قضـينا فيهـا أكثر من عشر سنوات ، بين الجد والسهر والتعب ، أو يغتلونا كمـا إغتـالوا مـن قبـل صـاحبة الفكرة الأساسية ، الدكتورة سميرة موسى .

فى تلك الأثناء عـادت زوجتانـا ، وبشـرتهما إزدادتـا شـحوباً وإصـفراراً، تحـدثت زوجـة الدكتور كلاوديو، وجسدها يقشعر من الخوف والرعب وقالت : عنـد ذهابنـا إلى التواليـت ، لاحظنا أقداماً تتبعنا ، وعندما إلتفتنا للخلف لإستطلاع الأمر وجدنا رجلاً قوى البنيان ، حاد الملامح ، خرج سريعاً عندما شاهدنا من باب الطوارئ المقابل للتواليت ، فعدنا سريعاً .

خرج الدكتور كلاوديو عن شعوره ، وعنف زوجته وقال : كم مرة طلبت منكِ ألا تفرطـى فى إحتساء النبيذ الأحمر، إنه يفقدك توازنك ، وتقـديرك للأمـور ، ويصـيبك بالـدوار ، أيـدت زوجتى ماقالته زوجة الدكتور كلاوديو ، ولكنه ظن أن زوجتى تحاول تهدئة الموقف .

خرجنا جميعاً من المطعم ثم ذهبنا إلى مكان بديع يعرف بإسم فونتانا دى تريفى ، عبارة عن نافورة بها شلالات من المياه المتدفقة تخرج من بين تماثيل ضخمة لشخصيات خرافية وخيول ضخمة ، مخلفة أصوات الهدير التى تختلط بأصوات إلقاء القطع المعدنية من العملات المختلفة ، التى يلقيها الزوار وظهورهم فى إتجاه الفونتانا ، لأن الناس تعتقدون أنها قادرة على تحقيق الأحلام ، بعد ذلك ذهبنا إلى الفندق .

شعر الدكتور شلتوت بالإرهاق ، فطلب من سعيد توفيق أن يكمل له بقية الأحداث فى الزيارة القادمة .

10

فى خارج المصحة كان ضابط المخابرات ينتظر سعيد توفيق ، دعاه للصعود إلى السيارة ، ثم سأله عن وجهته ، فقال : سوف أذهب إلى المنزل الجديد ، أفراد العائلة الآن يعلمون بأننى فى روسيا ، ولكن تظل هناك مشكلة ، لقد تغيبت عن العمل أكثر من عشرة أيام ، رد الضابط بثبات : لا داعى للقلق فقد تم ندبك إلى هيئة الطاقة الذرية ، وأنت الآن فى إجازة مفتوحة لحين إنتهاء المهمة .

سأله ضابط المخابرات ، لماذا لا تذهب لإحضار المراجع من منزل الدكتور شلتوت ؟ رد سعيد توفيق قائلاً : فى حقيقة الأمر كنت منتظراً أن أسأل فى هذا الأمر ، لأنى خشيت أن يكون ذهابى إلى هناك سوف يفسد خطتكم فى القبض على أفراد التنظيم الدولى .

إبتسم ضابط المخابرات وقال : لديك شعور أمنى ، ربما أفكر فى ضمك إلينا، لا داعى للقلق أنا أمزح معك ، المهم أريد منك أن تذهب غداً فى فترة الظهيرة إلى منزل الدكتور شلتوت ، لابد من أن يكون تصرفك عادياً جداً وطبيعياً ، وأطلب من البواب أن يأتى بسيدة من أجل تنظيف المنزل ، وأترك جميع المنافذ مفتوحة ، هذا تصرف طبيعى يجعل أفراد التنظيم يظنون بأنك أحد أقارب الدكتور شلتوت

، أو مشترٍ جديد للمنزل .وعندما تذهب سوف تجد عودة الكهرباء والمياه ، وإذا تتبعك أحد منهم لا داعى للهروب منهم ، ولا تنظر خلفك ، دعهم يظنون أن هروبك فى المرة السابقة كان محض صدفة .

إطمئن نحن بجوارك دائماً ، ربما لم ترنا ، ولكن سوف نتدخل فى الوقت المناسب ، فى هذا المظروف مبلغ من المال ، راتب شهرين من عملك الجديد .

قبل أن ينزل سعيد توفيق من السيارة سأل الضابط قائلاً : هل أنا فعلاً الآن أعمل فى هيئة الطاقة الذرية ؟ أجابه ضابط المخابرات بالتأكيد ، أنت متفوق وحاصل على درجة الماجستير ، وتلميذ عالم قدير ، إطمئن ، لقد رشحك الدكتور شلتوت ، وصدر قرار بتعيينك.

عند إنصرفك من المنزل خذ عدداً من الكتب ، بشرط ألا تكون لها علاقة بالفزياء أو الذرة ، وهذه هى بطاقة إثبات الشخصية الجديدة ، مسجل بها إسمك ، ومهنتك الجديدة ، وفى هذه الحقيبة أدوات حديثة للتصوير ، لأن مهنتك الجديدة هى مصور فوتوغرافى، مهنة تجعلك تتحرك بحرية ، وغير مرتبطة بمواعيد ، حتى يكون خروجك ودخولك فى أى وقت مبرراً .

أريد أن أذكرك ، عندما تخرج من الباب السرى ، لابد وأن تعود منه ، لأنك من الغد سوف تكون تحت أعينهم ، ثم إنهم سوف يدخلون منزلك فى أثناء غيابك عنـه ، حتـى يتأكـدوا مـن شخصيتك ، لقد وضعنا لافتة نحاسية على باب المنزل محفوراً عليها إسمك ومهنتك .

لا تنس أن تحفظ إسمك الجديد ، سعيد توفيق الآن فى روسيا ، ضحك الإثنان ، وإنصرف ضابط المخابرات تاركاً سعيداً أمام منزله الجديد ، واسمه الجديد ، ومهنته الجديدة .

11

خرج سعيد توفيق من المنزل ، يحمل على كتفه الحقيبة التى تحوى أدوات التصوير ، وترجل ، حتى وصل إلى الشارع الموازى من أجل الحصول على سيارة أجرة، ركب وقال للسائق : مصر الجديدة .

كان يضع على عينيه نظارة سوداء ، خشة أن تفضحه عيونه ، قبل أن يدخل العمارة طلب من البواب أن يحضر سيدة من أجل نظافة المنزل ، ثم أعطاه خمسة جنيهات وصعد إلى منزل الدكتور شلتوت، وبدأ فى فتح جميع نوافذ المنزل .

عندما فتح باب حجرة المكتب وجد جميع الأشياء مبعثرة مرة أخرى ، حاول أن يرتب الحجرة ، لكنه وجد فوق الكتب كماً كبيراً من الأتربة ، فعدل عن ذلك ، وأوكل للسيدة التى أحضرها البواب القيام بذلك .

طلبت منه الخادمة أن يساعدها فى تحريك الفراش حتى يتسنى لها أن تنظف من تحته ، وكانت المفاجأة ، وجود خزانة سرية داخل تجويف الحائط خلف الفراش ، أعاد سعيد توفيق سريعاً الفراش إلى وضعه القديم قبل أن تلاحظ الخادمة وجود الخزانة ، ثم تعلل بأنه لابد أن ينصرف الآن ، لأنه تذكر موعداً هاماً ، أعطاها النقود ثم ودعها ، وأغلق الباب جيداً.

دخل حجرة النوم لمعاينة الخزانة السرية مرة أخرى ، فوجد على بابها قرصين بارزين مدرجين ، عليهما أرقام وعلامات ، أعاد الفراش إلى موضعه ، ثم جلس فوق الفراش يفكر فى الأسرار التى تحويها هذه الخزنة ، وهل ما يبحث عنه أفراد المنظمة الدولية موجودة بداخلها ؟ وهل من الضرورى أن أبلغ ضابط المخابرات بشأنها ؟ أم أنها تخص فقط الدكتور شلتوت وهو الوحيد الذى يقرر ذلك ، ربما يكون بداخلها أشياء شخصية أراد ألا يطلع عليها أحد غيره ، فلم أخبر أحداً بشأنها ، هذا كان قراره الذى إتخذه .

فى الخامسة مساءً ترك منزل الدكتور شلتوت وتوجه إلى منزله ، حاملاً معه بعض الروايات ، ووجبة جاهزة من الطعام .

كان يتتبعه ثلاثة أشخاص من تلك المنظمة ، ورغم إنه شعر بوجودهم ، إلا أنه تغافلهم تماماً وصعد إلى منزله ، ثم تناول طعامه ثم ترك جسده تحت تيار متدفق من الماء الدافئ ، وهو مسترخ تماماً ، ثم أوى إلى فراشه منهك القوى بعد عناء يوم عصيب .

قبيل الفجر بقليل صعد أحد أفراد المنظمة إلى منزل سعيد توفيق، دخل إلى حجـرة نومـه ، رش فوق وجهه مادة مخدرة فى صورة غازية، جعلته لا يشعر بما يـدور حولـه ، ثـم بـدأ هـذا الرجل البحث والتفتيش فى كل شئ ، حتى تحقيق الشخصية ، بعـدها إنسـحب بهـدوء تاركـاً المنزل ، وهو لا يعلم بأنه تحت أعين وكاميرات ضباط المخابرات المصرية .

12

تسلل سعيد توفيق من الباب السرى ، وإستقل سيارة لتنقله إلى حى المعادى ، حيث يقبع الدكتور شلتوت فى المصحة ، لم ينتظر ليوم الجمعة لزيارته ، فالخزانة التى وجدها بالإمس ، أصبحت لغزاً لابد من حله ، خاصة وأنه أصبح جزءا من لعبة لا يعرف أبعادها ، ويخشى أن يتورط فى أشياء قد تعصف به وبمستقبله .

كان الوقت مبكراً ، والدكتور شلتوت مازال يقبع فى غرفته ، جلس فى فناء الحديقة منتظراً ظهوره ، لكنه وجد أمامه ضابط المخابرات ومعه مظروف أصفر كبير ، أعطاه إياه ثم سأله : لماذا أتيت اليوم لزيارة الدكتور شلتوت ؟ هل حدث شئ أردت أن تبلغه به ؟ على أية حال نحن نعلم سبب حضورك اليوم إلى هنا ، جئت لتبلغ الدكتور شلتوت بموضوع الخزانة المجودة خلف فراشه فى حجرة نومه ، وكنت تريد أن تعرف منه ما بداخلها ؟ الخزانة الآن فارغة ، لا يوجد بها شئ ، لقد قمنا بنقل محتوياتها إلى مكان أمين ، أما عن الأشياء التى كانت بداخلها ، فليس من حقى أن أبلغك بها ، الدكتور شلتوت فقط من يملك حق البوح والإفصاح عما بداخلها .

داخل هذا المظروف عدد من الصور للشخص الذى دخل منزلك فجر اليـوم ، أحضـرتها لك كى تطمئن بأنك تحت حمايتنا ، وحتى تثق بنا ، نحن نعمـل مـن أجـل مصـر ، وعملنـا لا يحتمل الخطأ، ووجودك هنا الآن خطأ كبير ، كان من الممكن أن يكلفك حياتـك ، إتبـاع مـا نقوله لك من إرشادات فيـه سـلامتك ، ونجـاح العمليـة ، والقـبض عـلى أعضـاء المظمـة ، وأعوانهم فى مصر ، هذه المنظمة هى التى قامت باغتيال زوجـة الـدكتور شـلتوت فى رومـا ، ومن السهل عليها تصفية أى شخص يقف حائلاً بينهم وبين ما أتوا من أجلـه ، لا أسـتطيع أن أفصح أكثر من ذلك فى الوقت الحالى ، سوف تعلم كل شئ فى حينه ، ها هو الدكتور شـلتوت خرج لتوه من غرفته ، سوف أتركك الآن ، ولا تنس التخلص من المظروف الأصفر والصـور بالحرق ، وإلقاء مخلفات الحرق فى الحمام .

رحب الدكتور شلتوت بسعيد توفيق وقال :

ـ أعلم لماذا أتيت اليوم ؟ ألم تستطع الإنتظار إلى يوم الجمعة لتعرف بقية القصة ؟

ـ لا أتيت من أجل شئ آخر

ـ ما هو ؟

ـ الخزانة الموجودة فى حجرة نومك

ـ الخزانة فارغة

ـ أعرف أنها الآن فارغة ، كنت أود أن أعرف ما كان بها

ـ سوف أخبرك بكل شئ ، ولكن بعد ان أقص عليك الحكاية كاملة ، حتى تكون ملماً بالوضوع من كل جوانبه ، وقتها فقط سوف أبوح لك بالسر الذى أخفيه عنك

ـ إذا أكمل الحكاية .

فى صباح اليوم الثانى كان ينتظرنى صديقى الدكتور كلاوديو فى بهو الفندق ، بيده حقيبة صغيرة من الجلد الأسود ، تبادلنا التحية ، ثم توجهنا إلى صالة الطعام ، وتناولنا وجبة إفطار خفيفة مع عصير البرتقال ، بعدها ركبنا سيارته ، وتوجهنا إلى الجامعة حيث إنعقاد المؤتمر العلمى .

دخلنا قاعة كبيرة ، تشبه كثيراً دار الأوبرا المصرية القديمة ، مزينة بزخارف عتيقة ، وبعض الصور لكبار العلماء ، لفت نظرى وجود صورة زيتية للعالم المصرى مصطفى مشرفة ، توجهنا بصحبة أحد المشرفات كى تدلنا على المكان المخصص لنا .

فى العاشرة صباحاً ، بدأت وقائع المؤتمر بالجلسة الإفتتاحية ، والتنويه على الأبحاث والدراسات التى سوف تناقش ، وكان من بين تلك الأبحاث بحث مشترك لى مع الدكتور كلاوديو ، وكان بعنوان « طريقة الحصول على تفاعل متسلسل بإثارة عناصر غير مشعة »

إنتهت وقائع الجلسة الإفتتاحية ، تركت بعدها قاعة المؤتمر وذهبت إلى مكتبة الجامعة للإطلاع على بعض المراجع الحديثية ، ومعرفة إسم دور النشر حتى أتمكن من شرائها .

تركت الجامعة وتوجهت إلى الفندق ، كانت زوجتى قلقة لتأخرى ، رمتنى بنظرة عتاب ، ثم قالت : لماذا تركتنى وحدى ؟ ولماذا لم تأخذنى معك ؟ قبلت زوجتى وقلت : كان يوماً شاقاً جداً ، ولكن بعد رؤيتك زال كل التعب ، لقد إكتشفت اليوم شيئاً خطيراً ، توجد صالة إنتظار كبيرة ملحقة بقاعة المؤتمر ، مخصصة للضيوف المصاحبين لأعضاء المؤتمر ، لذلك قررت أن تأتى معى غداً إن شاء الله .

إبتسمت زوجتى وقالت : لك طريقة سحرية فى إمتصاص غضبى، وكأنك قطعة من الأسفنج ، أنت رائع يا شلتوت ، رائع فى كل شئ ، إلا شيئاً واحداً ، سألتها ما هو يا حبيبتى ؟ قالت وهى تضحك : أسمك يا حبيبى ، من اليوم سوف أطلق عليك أسماً أخر «شارلوك» إبتسمت وقلت : شلتوت ، شارلوك .....الأثنان بحرف الشين .

أخذت حماماً دافئاً ، ثم إرتدينا ملابسنا ونزلنا إلى صالة الطعام ، جلسنا فى أحد الأركان ، ثم أمسكت بقائمة الطعام ، لاحظت زوجتى تنتفض فى مكانها ، وكأنما لدغها عقرب ، قلت لها وقد إنتابنى القلق، ما بكِ ياحبيبتى ؟ قالت وهى تشير بسبابتها : إنه نفس الشخص الذى كان يتتبعنى بالأمس ، قلت لها ربما يكون شخصاً أخر يشبهه ، قالت بحزم لا إنه نفس الشخص ، نفس الشعر الأسود الكثيف ، والنظارة السوداء التى تغطى نصف وجهه .

بعد لحظات إختفى هذا الشخص ، وكأنه نفر من الجن ، تركنا صالة الطعام ، وصعدنا إلى غرفتنا ، وطلبت من إدارة الفندق أن تأتى بالطعام إلى الغرفة ، وتضيف قيمة الفاتورة على حساب الغرفة، فرغنا من الطعام ، ثم خلدنا إلى النوم الذى آبى وأن يكون ثالثنا .

13

فى المساء تركنا الفندق ، وذهبنا إلى شارع ماركونى ، حاولت أن أُخرج زوجتى من حالة الخوف والقلق التى ألمت بها بسبب الشخص الغامض التى رأته مرتين ، كانت زوجتى تحلم دائماً أن تقتنى خاتماً من الألماس .

دخلنا مكاناً فسيحاً يشبه كثيراً السوبر ماركت ، لكنه متخصص فقط بالمشغولات الذهبية والمجوهرات والتحف الثمينة ، شعرت زوجتى وكأنها فى مغارة على بابا ، وأخذت تردد وهى تضحك «ذهب ياقوت مرجان ...أحمدك يا رب »، إختارت زوجتى خاتماً من الذهب الأبيض مرصع بفص صغير من الألماس ، عانقتنى، وقبلتنى ، ثم شكرتنى على الهدية الثمينة .

سرنا وذراعى يحيط بخصرها ، وتحدثنا عن الذكريات ، وكيف تعارفنا ؟ وعن صدها لى فى أول مرة حاولت التحدث معها ، كان الحديث يومها ممتعاً وجميلاً ، وكأن القدر أراد أن تموت زوجتى ، وهى فى قمة سعادتها ، أنت تعلم بأننا لم نرزق بطفل بسبب عيب خلقى فى رحم زوجتى ، وقد عرضنا الحالة على أكثر من طبيب عالمى ، لكنها ظلت عقيماً ، وكان عزاؤها الوحيد ، حبى لها، وتمسكى بها .

تعبنا من السير ، أشرت بيدى لسيارة أجرة وركبنا ، وفى إحدى المنحنيات لمحت سيارة نقل ثقيل ، تميل بشدة ناحية سيارتنا ، فى هذه اللحظات إختلت عجلة القيادة من يد السائق وإنقلبت السيارة ، وإرتطمت بشدة على جانبها الأيسر ، مما أدى إلى موت زوجتى والسائق ، أما أنا فكنت ملقى فوق أحد الأسرة فى مستشفى سان كاميلو فى حالة فقدان وعى .

حاول أحد رجال الأمن سؤالى عن الحادث ، وكيف وقع ؟ لكن حالتى النفسية كانت لا تسمح بذلك .

فى صباح اليوم التالى كان فى زيارتى سفير مصر فى روما ، وقدم لى العزاء فى وفاة زوجتى ، وقال : إطمئن ، السفارة سوف تقوم بكافة الإجراءات لنقل الجثمان إلى القاهرة ، ثم مال ناحيتى ، وطلب منى هامساً أن أستمع جيدا للشخص المرافق له ، وكان أحد أفراد المخابرات العامة المصرية ، إقترب منى هذا الشخص وقال : أرجوك أن تنفذ كل ما أطلبه منك بكل دقة ، لأن حياتك فى خطر ، ولابد وأن تعلم أن حادث الأمس كان مدبراً من جهات أجنبية ، لم نتوصل إليها حتى الآن ، وأن وجودك على قيد الحياة يشكل خطراً على هذه الجهات ، ثم سألنى إذا كنت قد تحدثت مع أحد بخصوص الحادث ، فأجبته بالنفى ، فقال : هذا جيد، أرجوك أن تتصنع فقدانك للذاكرة عند سؤالك عن أى شئ ، ربما يكون ذلك هو جواز مرورك من إيطاليا بسلام .

14

نفذت كل ما طلب منى بكل دقة ، وبعد يومين تماثلت للشفاء ، وأرسلت إدارة المستشفى فاكساً إلى السفارة المصرية ، وآخر إلى مقر المؤتمر ، تعلمهما بتماثلى للشفاء ، وطلبت ايضاً من السفارة المصرية أن تعين مرافقاً لى ، لأن حالتى النفسية غير مستقرة ، ويوجد إشتباه فى فقدانى للذاكرة .

كان رجال المخابرات المصرية منتشرين فى كل أرجاء المستشفى لحمايتى ، خوفاً من إغتيالى ، وقد لاحظت ذلك عند خروجى من المستشفى ، حيث وجدت ثلاثة سيارات دفع رباعى يحيطون بالسيارة التى أرسلتها السفارة لنقلى إلى المطار ، غادرنا روما ثلاثتنا ، أنا والمرافق وجثمان زوجتى ، عائدون إلى القاهرة .

فى مطار القاهرة كان هناك جمع غفير من الأهل والأصدقاء ، ورجال الأمن ، والمخابرات المصرية ، تم نقل الجثمان مباشرة إلى مدافن الأسرة بالبساتين ، وقد كان كل شئ مُعد مسبقاً .

بعد مراسم الدفن طلب منى أحد ضباط المخابرات أن أتوجه معه إلى مبنى المخابرات العامة ، وهناك طلب منى مرافقى أن أستريح بعض الوقت ، ثم نلتقى فى المساء ، وضعتُ فى غرفة صغيرة بها فراش لفرد واحد ، ومكان نظيف لقضاء الحاجة ، وثلاجة صغيرة بها بعض المشروبات ، والمياه المعدنية .

إستلقيت على الفراش على أمل أن تغمض عيناي ولو لدقائق ، لكن دون جدى ، فقد أقسم النوم ألا يزورنى ، وهل جُن النوم حتى يذهب بقدميه إلى مبنى المخابرات العامة ؟.

فى المساء جاء أحد الضباط ليصطحبنى لمكتب العميد حمدى إبراهيم ، طلب منى الجلوس ، وضغط على زر بجواره ، ثم طلب من الساعى أن يحضر لى كوباً من عصير الليمون المثلج .

بدأ العميد حمدى الحديث معى بخبر مؤسف ، لم أكن أتوقعه ، قال لى وهو ينظر فى بعض الأوراق بين يديه : لقد عثر البوليس الإيطالى بالأمس ، على جثتين متفحمتين ، كانتا للدكتور كلاوديو ديزيديرى وزوجته ، ولم تدل التحريات عن أية شبهة جنائية ، فقد حدث الحريق نتيجة ماس كهربائى ، وحفظ التحقيق .

شعرت بمزيج من الخوف والألم والضياع ، فقدت الزوجة والصديق والعون ، وأصبحت خاوياً ضعيفاً ، ألعن عقلى ، ألعن علمى ، ألعن كل من علمنى حرفاً ، ليتنى كنت جاهلاً ، ما أجمله الجهل ، ما أحلاه الجنون ، الجسد بدون عقل لا يسعى أحد لإيذائه، العقل والعلم قتلا زوجتى وصديقى كلاوديو وزوجته ، وقتل سميرة موسى ، ويحى المشد ، وسعيد بدير ، وجمال حمدان ، وقتها تذكرت مثلاً قديماً قرأته ، « إستراح من لا عقل له » ، هم يقولون : أن العقل زينة ، وأنا أقول إن العقل نقمة ، العقل هلاك ، يسقط العقل، يسقط العلم ، يحيا الجهل ، يحيا الجنون .

تركنى العميد حمدى إبراهيم أهذى بالكلام دون أن يقاطعنى ، وكأنه أراد أن يتركنى أهون على نفسى ، حتى لا أنفجر ، وقال بهدوء رجل المخابرات : يجب أن تهدأ الآن ، لأن الوقت ليس فى صالحنا، إنهم يتحركون بسرعة مذهلة فى كل مكان ، وفى كل الإتجهات ، سألت محدثى : من هم ؟ رد قائلاً : حتى الآن لم نتوصل إلى الجهة المسئولة عما حدث ، ولكن هناك عدة جهات لها مصلحة فى أن لا يرى بحثكما أنت والدكتور كلاوديو النور ، لأن معنى ذلك أن يكون هناك إحتمال فى المستقبل الحصول على قنبلة نووية من تفتيت مواد فى متناول الجميع ، مواد رخيصة وغير مكلفة ، ولا تحتاج إلى مفاعلات نووية ، ولا ماء ثقيل ، ولا خوف من الأشعاع .

سألت العميد حمدى ، كيف توصلت لهذه المعلومات ، والبحث لم ينشر بعـد ، وقـد ألقـي الضوء عليه فى المؤتمر منذ خمسة أيام فقط ، أجاب العميد حمدى قائلاً : إن مهمتنـا أن نعـرف كل شئ عن أى شئ، خاصة إذا كـان الموضـوع يتعلـق بأحـد علمائنـا العظـام ، نحـن نتتبـع الموضوع منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، عندما كنت تدرس هنـاك فى جامعـة برينسـتون بنيـو جرسى ، لقد أخذنا على عاتقنا حماية علمائنا فى الخارج ، خاصة بعد إغتيال عدد كبيـر مـنهم ، وتتبعنا خطواتك أنت وزميلك كلاوديو ديزيديرى ، وقد قمنا بتسجيل معظـم اللقـاءات التـى تمت بينكما ، والغريب أننا قد لاحظنا جهات أخرى تتبعكما ، لذلك شددنا الرقابـة عليـك ، وتم زيادة الأفراد المكلفين بحمايتك ، لذلك الآن حياتك فى خطر ، ولابد من الإختفاء تماماً عن أعينهم ، سوف نرسلك إلى مصحة نفسية فى المعادى ، وسوف تكون هناك تحت حمايتنا.

الغرض من ذلك إذا إكتشفت المنظمة التى تتقصى أثرك مكانك، فسوف تتأكد بأنك فعـلاً فقدت الذاكرة ، وتتركك وشأنك ، وسوف ننشئ لك معملاً فى بـدروم المصـحة ، فيـه جميـع المعدات التى سوف تحتاجها ، وبالتأكيد سوف تحتـاج إلى مسـاعد ، لـك مطلـق الحريـة فى إختيار الشخص المناسب .

وقد أخترتك أنت ، لذلك أرسلت لك خطاباً فيه عنوان المصحة، وطلبت منك أن تأتى لزيارتى ، ولكن المخابرات العامة طلبت منى ألا أبوح لك بشئ إلا بعد الإستعلام عنك وعن أسرتك ، لأن الموضوع الآن أصبح أمناً قومياً ، وأن رئيس الجمهورية شخصياً مهتم به ، وطلب من أجهزة الدولة تسخير كل إمكنايتها من أجل تحقيق هذا الحلم ، هذا ما حدث ولك القرار ، سأنتظرك غداً ، إذا كان قرارك بالموافقة على مساعدتى .

15

إستخدم سعيد توفيق الباب السرى طريقاً لعودته ، لقد شعر بقـدر المسـئولية التـى ألقاهـا على عاتقه الدكتور شلتوت ، فهو الآن مُخيّر بين أمرين كلاهما صعب ، إذا وافـق عـلى العمـل كمساعد مع الدكتور شلتوت ، فهذا سوف يعرضه لمخاطر كبيرة ، وإذا رفـض ، فهـذا معنـاه أنه قد تخلى عن دوره الوطنى ، وخيب أمال وثقة أستاذه الدكتور شلتوت .

لقد أصبحت قدرتنا على الحصول على قنبلة نووية رادعة ، حلماً متحركاً يسير عـلى قـدمين راسختين ، يحتاج إلى كثير من العمل والجهد ، إسرائيل أجبرت العرب على قبولهـا وسـطهم بالقنبلة النووية ، وأمريكا جعلت اليابان تستسلم فى الحرب العالمية الثانية بالقنبلـة النوويـة ، ومصر سوف تعيش بسلام وأمان إذا إمتلكت القنبلة النووية ، كان يفكر فى هذا وهـو واقفـاً فى شرفة منزله ، حسب تعليمات ضابط المخابرات ، حتى يـراه أفـراد المنظمـة ويتأكـدون مـن وجوده بالمنزل .

توقفت فاجأة سيارة دفع رباعى سوداء ، نزل منها أربعة رجال أشداء ، يرتدون جميعهم ملابس سوداء ، عندما رأهم سعيد توفيق دخل مباشرة إلى غرفة نومه ، بدل ملابسه ثم ألقى بنفسه فوق الفراش ، بعد لحظات قليلة كان أفراد المنظمة يحيطون بفراشه وهم يحملون أسلحتهم ، مسلطون أضواء كشافاتهم نحوه ، بعد محادثة قصيرة عبر جهاز لاسلكى ، أتى ثلاثة أفراد آخرون ، كان من بينهم الرجل الغامض التى رأته زوجة الدكتور شلتوت فى روما ، هذا هو الصيد الثمين الذى كانت تبحث عنه المخابرات المصرية .

إنه موسى أهارون ، ضابط المخابرات الإسرائيلية ، يهودى من أصل مغربى ، ويعمل فى الموساد منذ أكثر من عشرة أعوام ، وهو الذى نفذ عملية إغتيال زوجة الدكتور شلتوت ، والدكتور كلاوديو ديزيديرى وزوجته .

كانت أجهزة المخابرات متابعة للموقف عن قرب ، كانت فى المنزل المقابل مباشرة ، فى دقائق معدودة كانوا فوق رؤوسهم من كل إتجاه ، إستطاعوا شل قدرتهم ، وقيدوهم بالأغلال وذهبوا بهم إلى مكان غير معلوم .

ظل ضابط المخابرات مع سعيد توفيق الذى كاد أن يموت خوفاً، مما حدث ، فهو إنسان مسالم إلى أقصى حد ، لم يتشاجر مع أحد طوال حياته ، ثم وجد نفسه بين سبعة رجال مسلحين ، أتى ضابط المخابرات بزجاجة مياه وأعطاها لسعيد توفيق الذى مازال تحت تأثير ما حدث .

خرج ضابط المخابرات عن صمته وقال :

ـ كنت رائعاً

ـ لم أفهم ما تعنيه ، كان بينى وبين الموت لحظة

ـ كنت فى حمايتنا ، وتحت أعيننا

ـ هل أنا كنت الطعم لهذا الصيد الثمين

ـ لماذا تقول ذلك ؟

ـ هل من أجل أن تحصل على ترقية ووسام ، أن تعرّض حياة مواطن للخطر

ـ أنا فعلت ذلك من أجل مصر ، ومن أجل صديقك الدكتور شلتوت

ـ ما علاقة الدكتور شلتوت بما حدث ؟

ـ لقد قبضنا على الشخص الذى قام بإغتيال زوجته

ـ وهل كنتم تعلمون بأنهم سوف يأتون إلى منزلى ؟

ـ عملنا لا يحتمل التوقعات ، كان من الطبيعى أن يأتوا إليك ، ويسألوك عن مكان الدكتور شلتوت ، فأنت الوحيد الذى دخل منزله بعد مرور عامين.

ـ ولماذا لم تقبضوا عليهم عندما دخلوا منزلى أول مرة ؟

ـ لأننا كنا فى إنتظار الصيد الثمين ، ضابط المخابرات الإسرائيلى موسى أهارون ، إنه متخصص فى الإغتيالات فى الموساد ، ومن أخطر عناصرها على الإطلاق

ـ والآن ...هل من الممكن أن أعود إلى حياتى الطبيعية

ـ هذا يعود إليك ، لك حرية الإختيار ، فى أن تكمل مع الدكتور شلتوت ، أو تعود إلى عملك الجديد فى هيئة الطاقة الذرية

ـ ظننت أن بقبضكم على أفراد التنظيم ، قد إنتهى دورى

ـ بل بدأ دورك ، كان من الصعب العمل فى ظل وجود هؤلاء الأوغاد هنا فى مصر ، كان لابد من التخلص منهم أولاً

ـ أنا من الغد سوف أذهب إلى المصحة

ـ لا تنس أن تستخدم الباب السرى

ـ ألم يتم القبض على جميع أفراد التنظيم ؟

ـ لا أحد يعلم ربما يكون هناك آخرون ، على أية حال غداً هو اليوم الآخير لك فى هذا المزل ، إبتداء من الغد سوف تقيم مع الدكتور شلتوت

ـ فى المصحة

ـ نعم فى المصحة ، ولكن فى مكان أعد خصيصاً لكما ، أسفل مبنى المصحة ، مكان مكيف الهواء ، به كل أدوات الحياة الحديثة ، ومعكما خادم وطباخ ، وملحق بهذا المكان معمل على أحدث طراز، به جميع الأجهزة الحديثة التى طلبها منا الدكتورشلتوت ، قد سافر خصيصاً ضابط من سلاح المهندسين إلى روسيا للإشراف على فحصها وشحنها فى طائرة خاصة من رحلات مصر للطيران ، وكان على متنها فريق كرة اليد الذى كان فى معسكر تدريب هناك

وذلك من أجل التمويه ، أنا قلت لك ذلك حتى تعلم كم الجهد المبذول من أجل تحقيق حلم مصر والعرب

ـ أنا فخور بكم جميعاً ، ولن أكون أقل منكم وطنية وإخلاصاً ، سوف ننجح ، ويعلم العالم كله أن فى مصر علماء يمتلكون القدرة على صنع المستحيل من أجل مصر الحبيبة .

تعانق الإثنان طويلاً ، ثم إنصرف ضابط المخابرات ، تاركاً ثلاثة أفراد من الأمن لحمايته ، فقد أصبح جزءاً من الحلم .

16

فى الثامنة صباحاً كانت سيارة بيجو سوداء ، زجاجها من النوع الذى لا يظهر مـا بداخلـه ، تنتظر سعيد توفيق ومرافقيه ، أمام الباب السرى ، فور ركوبهم جميعاً إنطلقت السيارة سـريعاً ، وسار السائق فى أكثر من طريق قبل أن يذهب لأطراف حى المعادى ، وذلك من أجل التأكـد من عدم تتبعهم .

وقفت السيارة خلف مبنى المصحة ، ثم دخلوا جميعـاً مـن بـاب جـانبى صـغير ، وسـاروا داخل ممر ضيق شبه مظلم تحيطه أشجار كثيفة على الجانبين تكاد تتعانق أغصانها ، فى نهايتـه دولاب كبير من الصاج السميك بلون رمادي مكتـوب عليـه فى منتصـفه بخـط أسـود كبيـر « كهرباء ، خطر الموت » يظهر لمن يراه وكأنه « كشك كهرباء».

بعد إتصال لاسلكي ، تم فتح الباب بطريقة أوتوماتكية ، دخـل سـعيد توفيـق ، ثـم إجتـاز عدداً من السلالم فوجد نفسه أمام الدكتور شلتوت مرتدياً البالطو الأبيض واقفاً أمـام جهـاز لم يره من قبل .

سر كثيراً الدكتور شلتوت عندما رأى سعيد توفيق أمامه ، عانقه ثم قبله وبكى قـائلاً : لقـد تم القبض على قاتل زوجتى ، وقد وعدنى ضابط المخابرات بأننى سوف أحضر تنفيـذ حكـم الإعدام فيه ، آخيراً سوف أثأر لزوجتى وصديقى ، سوف ننجح يا سعيد .

قبل أن نبدأ العمل سوف أجاوب على سؤالك ، ماذا كان بداخل الخزانة ؟ سوف أعود بك إلى لقائى بالدكتور كلاوديو ديزيديرى فى نيوجيرسى بأمريكا أثناء دراستى فى جامعة برينستون ، لقد صددته أكثر من مرة عندما كان يناقشنى فى موضوعات لها علاقة بالشأن المصرى ، مثل إغتيال مصطفى مشرفة ، وسميرة موسى ، وعن الآبحاث التى توصلت إليها ، والتـى أدت إلى إغتيالها ، كنت دائماً أعتذر عن الحديث بسبب إنشـغالى ، أو إرتبـاطى بموعـد ، إلى أن حلـت الذكرى الثامنة للإحتفال بنصر أكتوبر ، وقد وجهت لى السفارة المصرية فى واشـنطن الـدعوة لحضور الإحتفال .

كانت المرة الأولى التى أذهب فيها إلى واشنطن ، وكانت هناك المفاجأة ، وجدت الـدكتور كلاوديو جالساً مع بعض الأشخاص المصريين ، وكان من بينهم قنصـل مصـر فى واشـنطن ، تبادلنا التحية وطلب منى الجلوس معهم على نفـس المائـدة ، سـألنى قـائلاً : ربمـا تتعجـب لوجودى هنا معكم فى السفارة المصرية ، لكن سوف أحل لك اللغز سريعاً قبـل أن تمـل ، أو تتركنى وتذهب كما تفعل دائماً .

أنا والدتى مصرية قبطية ، كانت تعيش فى الإسكندرية ، تعـرف عليهـا والـدى الـذى كـان يعمل فى القنصلية الإيطالية بالأسكندرية ، ثم تزوجا ، وذهبا إلى روما بعد إنتهاء عمله بمصر ، والقنصل العام هو خالى ، شقيق والدتى ، وهو الذى وجه لى الـدعوة للحضـور ، هـل لـديك أسئلة أخرى ؟ ضحكنا وذهبنا إلى البوفيه لتناول الطعام ، بعدها أصبحنا صديقين .

بدأنا نبحث عن كل شئ له علاقة بتجارب تفتيت المعادن الرخيصـة ، ولم نصـل إلى شـئ ، كلها تجارب نظرية ، لم تصل إلى حيز التنفيذ العملى .

حصلت على درجة الدكتوراه ، وقد عرضت عليَ الجامعة العمل بها نظير أجر كبير ، لكنـى رفضت وفضلت العودة إلى مصر .

بعد عودتى بأيام تم زواجنا أنا ونجلاء ، فقد تمت خطبتنـا قبيـل سـفرى لأمريكـا ، وبعـد إنقضاء شهر العسل ، عدت إلى الجامعة وكلى أمل وتفاؤل فى أن أفيـد الـوطن بعلمـى ، لكـن الواقع كان غير ذلك ، لا توجد معامـل مجهـزة ، والمـنهج الـذى يـدرس كلـه نظـرى ، لأن الأجهزة الموجودة لا تعمل ، وتقدمت أكثـر مـن مـرة لـرئيس القسـم بطلـب لشـراء بعـض الأجهزة والخامات ، فكان رده دائمـاً : ميزانيـة الجامعـة لا تسـمح ، بعـدها تقـدمت بطلـب لإنتدابى للعمل فى هيئة الطاقة الذرية .

بعد لقائى برئيس الهيئة ، طلب منى أن أحضر له رسالتيّ الماجستر والكتوراه غـداً ، حتـى يقف على آخر ما توصلت إليه ، لوضعى فى المكان المناسب ، ثم قال : إذهب الآن إلى مكتب شئون العاملين وأعطهم شهادة الدكتوراه .

بعد أن تقدمت بمسوغات التعيين ، سألت الموظف المختص عن سـميرة موسـى ، فقـال كل المعلومات الخاصة بها توجد فى الأرشيف .

ثم قال : لماذا تسأل عنها ؟ قلت له : أريد أن أعرف أين كانت تعيش ؟

أريد أن أرى منزلها ، وأسرتها ، لقد حصلت على درجة الدكتوراه من أمريكا منذ ستة أشهر ، ورأيت مدى إهتمام الغرب بها وبأبحاثها ، إنهم يطلقون عليها إسم « مـس كـورى الشـرق » عرفت لماذا أريد أن أعرف العنوان الذى كانت تقيم فيه قبل إغتيالها ؟ .

إبتسم الموظف وكان شاب فى العقد الثالث وقال : غداً سوف أحضر لك العنوان .

17

بعد عناء توصلت لإبنة خال سميرة موسى ، ذهبت إلى منزلها فى المساء بصحبة زوجتـى ، عرفتها بنفسى ، وأظهرت لها مدى إهتمامى وتقديرى للعالمة الجليلة ، وقلت لها : عدت من أمريكا منذ وقت قصير ، وقد ناقشنى عالم إيطالى فى أشـياء كثيـرة عـن سـميرة موسـى ، وعـن أبحاثها ، وعن الطريقة التى قتلوها بها ، فشعرت بشئ من التقصير والغيـرة فى نفـس الوقـت ، لماذا يهتم أجنبى بإبنة وطنى ؟ وأنا الأولى بها ، ومن يومها حاولت وأن أعرف كل شئ عنهـا ، وقررت أن أكمل ما بدأته من أبحاث ، فى مجال تفتيت ذرات المعادن الرخيصة .

أنا لا أعلم إذا كنتِ تفهمين ما أقوله ، ولكن أهـم شـئ ، أريـد أن تعلمـى إننـى أهـدف فى الأساس إلى الثأر لها ، ورد إعتبارها ، ويعلم الجميع أنها كانت على حق ، فى النظرية التـى قـد توصلت إليها منذ أكثر من ثلاثين عاماً .

قامت السيدة وتركتنا دون أن تقول أى شئ ، ثم أتت ومعها نوتة سوداء قديمة ، وقالت : هذا الشئ الوحيد الذى وجدته فى منزلها بعد إغتيالها ، كانت موجودة تحت مرتبة فراشها ، لكن باقى الأوراق والمراجع ، قد أتت لجنة من جامعة القاهرة وتحفظت عليها ، بأمر من النيابة العامة .

أنا على إستعداد أن أعطيها لك ، بشرط إذا توصلت إلى نتيجة إيجابية لبحثك أن تهديه إلى روحها الطاهرة ، لقد حاولت أن أفهم ما بداخل تلك النوتة ، لكنى فشلت ، كلها معادلات ورموز ، ومسائل رياضية ، الشئ الوحيد الذى فهمته ، هو ما كتبته فى آخر صفحات النوتة السوداء « ثم غربت الشمس » وكأنها كانت تشعر بقرب النهاية.

أخذت النوتة وأنا أكاد أطير فرحاً ، ونسيت وعدى لزوجتى بأن نتناول وجبة العشاء فى أحد مطاعم الحسين ، لكن الكنز الذى حصلت عليه أنسانى كل شئ .

وضعت النوتة بين طيات ملابسى وأغلقت عليها سترتى جيداً ، وذهبنا إلى المنزل مباشرة ، حتى هذه اللحظة لم أفتح النوتة ، كنت خائفاً ، وكأن بها قنبلة نووية .

دخلت حجرة المكتب ، وأغلقت بابها بإحكام ، وطلبت من زوجتى ألا تزعجنى تحت أى ظرف ، لأننى أريد الإنفراد بنفسى قليلاً ، لم تعلق زوجتى ، ودخلت إلى المطبخ لإعداد طعام العشاء .

فتحت النوتة وتلمست صفحاتها ، ثم رفعتها بالقرب من أنفى ، لأشتم عبقها العلمى ، كانت الصفحة الأولى تحتوى على شخابيط بالقلم الرصاص ، بالإضافة إلى كلمتين «هيروشيما ، نجازاكى » ، على ما أعتقد إنها كانت تخشى أن يحدث لمصر مثل ما حدث لليابان ، وهذا كان الدافع الأساسى فى التفكير فى صناعة قنبلة نووية مصرية ، وأيضاً كان نفس الدافع الذى أدى إلى إغتيالها .

تصفحت النوتة سريعاً كى أكوّن رأياً مبدئياً عن محتواها ، ولكن إستوقفنى رسم كروكى لجهاز توصيل حرارى للغازات تحت ضغط ، مشابه إلى حد كبير الجهاز الحديث الذى تم جلبه من روسيا، وذكرت أيضاً المواد التى تستخدم فى صناعة أجزائه ، وطريقة تشغيله ، أما باقى محتويات النوتة فهى عبارة نظريات لم يثبتها العلم حتى الآن ، وبعض الخواطر .

18

بعد مرور عامين من إغتيال الدكتور كلاوديو ديزيديرى وزوجته فى منزلهما فى روما ، ظهر الدكتور ماورو سانسونى مساعد الكتور كلاوديو بعد إختفائه مباشرة بعد الحادث ، ولكن المخابرات المصرية كانت تتقصى أثره ، لأن وراءه أسرار كثيرة لابد من كشف الستار عنها ، لأنه هو الطرف الثالث فى المعادلة الحرجة ، وهو الوحيد القادر على حل اللغز ، وتفسير ماحدث ، وأين كان طوال هذه المدة .

كان لدى المخابرات المصرية يقين بأنه هو الذى سرب سر البحث المشترك بين الدكتور شلتوت والدكتور كلاوديو ، لأنه هو الشخص الثالث الذى علم بمحتوى البحوث أثناء مساعدته للدكتور كلاوديو ، وقد إكتشفت المخابرات المصرية إختفاء كل الأوراق الخاصة بالبحث من مكتبه بالجامعة ، لذلك وضعت الدكتور ماورو تحت المجهر ، وتتبعت جميع خطواته ، وتأكدت من مراقبته من طرف أخر ، وهو الموساد الإسرائيلى .

تعقدت الأمور قليلاً ، وصدرت تعليمات لرجال المخابرات بعدم تتبعه لمدة شهرين ، حتى يطمئن رجال الموساد أن عميلهم فى أمان.

ماورو سانسونى يهودى مـن أصـل إيطـالى ، حصـل عـلى درجـة الـدكتوراه فى الـديناميكا الحرارية ، غير متزوج ، ويعيش فى الجانب الأخر من نهر التيفرى ، خلف المعبـد اليهـودى ، حيث يعيش عدد كبير من الأسر اليهودية ، وتتميز هذه المنطقـة بوجـود عـدد مـن المطـاعم خاصة باليهود ، وبعض محلات الجزارة الكاشير .

« أحمد يوسف وزوجته اليونانية أنريكا يقطنان فى هذه المنطة والمكتظة باليهود ، منذ عشرة أعوام ، تربطهم علاقة جيدة بأهل المنطقة ، هو يعمل فى بنك ، وزوجنه تمتلك عيـادة أسـنان فى منطقة تراس تيفرى ، حيث درست فى جامعة تورفيرجاتا ، طب الأسـنان ، وحصـلت عـلى تصريح لمزاولة العمل » .

أحمد يوسف أو تاديوس أنطى كما يعرفه سكان المنطقـة ، ضـابط مخـابرات مصـرى مـن أسوان ذو بشرة سمراء ، يحمل جواز سفر أثيوبى ، وحصل على الجنسية الإيطالية ، وكـذالك زوجته .

كان من الضرورى أن تزرع المخابرات المصرية شخص فى هـذا المكـان ، لملاحظـة أى تصرف غريب يحدث ، ومراقبـة بعـض الشخصـيات اليهوديـة المعلومـة لـدى المخـابرات المصرية بصلتهم بالموساد .

وصلت إليه تعليمات بتتبع الدكتور ماورو سانسونى ، ومحاولة دخـول منزلـه ، وتصـوير جميع ما به من أوراق ، ووضع ميكروفون فى حجرة مكتبـه ، وأخـر داخـل سـماعة الهـاتف ، وتسجيل جميع المحادثات الهاتفية وتفريغها .

وجد أحمد يوسف صعوبة بالغة فى دخول منزل الدكتور ماورو ، لأن باب المنزل من النـوع المصفح ، ومرتبط بنظام إنذار حديث جداً ، لذلك عدل عن دخـول المنـزل ، وفكـر بطريقـة أخرى للدخول.

وضع فى طريق الدكتور ماورو فتاة ليل بولندية ، دخلت إلى مكتبه فى الجامعة تستفسـر منـه عن كيفية إلتحاقها بالجامعة ، لأنها درست الصـيدلة لمـدة عـامين فقـط فى جامعـة كراكـوف ببولندا ، قال لها : جميع المعلومات سوف تحصلين عليها من مكتب شئون الطلبة ، وعلى أيـة حال سوف أصحبك إلى هناك .

بعد أن إستفسرت عن كل شئ ، شكرت الدكتور ماورو ، الـذى أصـر عـلى تناولهـا طعـام الغداء معه فى المطعم الملحق بالجامعة ، لكنهـا إعتـذرت بلباقـة لإرتباطهـا بموعـد هـام فى الرابعة مساءً ، ولكن ليس لديها مانع من تناول وجبة العشاء معه فى منزله إذا كان يجيد الطهى ، رحب الدكتور ماورو قائلاً : أنا طباخ ماهر ، وهذا هو عنوان منزلى ، سوف أنتظرك فى الثامنة مساءً .

كان لدى أحمد يوسف كل الوقت لتجهيز ما يحتاجه ، أعطى فتاة الليل زجاجة صـغيرة بهـا كمية أقراص مخدرة ، قال وهو يعطيها دفعة ثانية من المال : ضعى قرصين من هذه الزجاجـة فى كأسه ، وعندما يسقط ويغط فى نومه أخرجى إلى الشرفة ، بعـدها سـوف أصـعد وأدق عـلى الباب ، تفتحين لى وتأخذين المبلغ المتبقى لـك وتنصـرفين ، ولا أريـد رؤيتـك هنـا فى هـذا المكان .

كانت الساعة تشير إلى التاسعة عندما صعد أحمد يوسـف إلى منـزل الـدكتور مـاورو ، كـان يرتدى قفازاً فى يديـه ، مسـح بفوطـة بيضـاء كانـت موجـودة عـلى المائـدة جميـع البصـمات الموجودة فوق الكاسات وأدوات المائدة ، ثم قام بمسح مقبض باب الشقة ، وكذلك مقبض الباب المؤدى إلى الشرفة .

قـام أحمـد يوسـف بتصـوير جميـع الأوراق الموجـودة فى غرفـة المكتـب ، ثـم قـام بـزرع الميكروفونات ، وقبل أن ينصرف أخذ جميع النقود الموجودة بداخل حافظة نقوده ، وأستولى على ساعة يده وبعض المقتنيات الثمينة ، حتى يتأكد الدكتور ماورو أن ما حدث كان بغـرض السرقة .

19

لم يبلغ الدكتور ماورو عن حادث السرقة منعاً للشوشرة والفضـائح ، خاصـة وإنـه معـرف وسط اليهود بتدينه وإلتزامه ، ومواظبته على الصلاة فى المعبد اليهودى ، لذلك قرر أن لا يخبر أحداً ، حتى ضابط الإتصال الإسرائيلى الذى يتلقى منه التعليمات ، لأنه قـد حـذره مـن قبـل بعدم إقامة أي علاقات غرامية داخل منزله ، ولكن ضعفه أمام هذه الفتاة أوقعه فى الخطأ .

أرسلت المخابرات المصرية الميكروفيلم الذى صوره أحمد يوسـف إلى القـاهرة لطبعـه ، وعرضه على الدكتور شلتوت ، الذى أكد أن هذه الأوراق تحتوى على البحـث المشـترك بينـه وبين الدكتور كلاوديو ، وإنها مكتوبة بخط يده ، ثم سألهم كيف حصلتم عليها ؟ وأين كانـت مختفية لمدة عامين ، رد ضابط المخابرات على الدكتور شلتوت قائلاً : هذا ما سـوف نعرفـه قريباً .

صدرت التعليمات بضرورة إحضار الدكتور ماورو سانسونى إلى القاهرة بأسرع وقت .

كانت الخطة التى وضعها أحمد يوسف تعتمد فى الأساس على موت أحد المصريين ، حتى يتم شحن الجثمان إلى مصر ، ثم يتم إستبداله بماورو سانسونى بعد أن يتم تخديره ، وبعد ذلك يتم دفن جثمان المصرى فى أى مقبرة .

تم التنسيق مع أحد الشركات المختصة بشحن الموتى ، التى تقوم بنقل الجثمان من المستشفى إلى المطار .

بعد أسبوعين تمت وفاة شاب مصرى فى حادث طرق ، كان يقود دراجة نارية وإصطدم بسيارة نقل ثقيل فمات فى الحال ، أبلغت القنصلية المصرية ، التى أبلغت بدورها رجال المخابرات لسرعة التحرك ، كان قد تاكد أن الجثمان سوف يكون جاهزاً للشحن بعد ثلاثة أيام ، كانت المخابرات قد إسأجرت منزلاً فى شارع جانبى متفرع من شارع ديلا ماليانا فى طريق المطار ، حتى يتم فيه إستبدال الجثمان .

كان عامل الزمن مهماً جداً فى الخطوة القادمة والخاصة بخطف الدكتور ماورو سانسونى ، وكان من الصعب جداً خطفه من أمام منزله ، لأنه فى منطقة مكتظة بالسكان ، كان الحل الوحيد هو خطفه أثناء عودته من الجامعة .

قامت المخابرات المصرية بتدبير حادث تصادم مع سيارة الدكتور ماورو من الخلف ، توقف ونزل من سيارته ليرى ما حدث، تم تخديره بسرعة ، ونقله إلى داخل سيارة ميكروباص ، وإستقل أحد ضباط المخابرات سيارته ، وذهب بها إلى خارج مدينة روما فى إتجاه نابولى ، وتركها هناك ، ثم عاد فى سيارة أخرى كانت تتبعه .

خرج الجثمان من المستشفى بعد أن وضع مندوب السفارة خاتم القنصلية المصرية عليه فى وجود مندوب الحجر الصحى فى روما، تم تسليم كافة المستندات لمندوب شركة الشحن التى تقوم بشحن الجثمان وتسليم بوليصة الشحن لممثل السفارة المصرية .

كان كل شئ معداً لتبديل الجثمان ، حيث توجه مندوب شركة الشحن إلى عنوان المنزل الذى إستأجرته المخابرات ، وتم نقل الجثمان فى تابوت أخر ، ووضع الدكتور ماورو سانسونى داخل التابوت المتوجه للمطار بعد تخديره ، ثم بعد ذلك وضع عليه مندوب السفارة من جديد الخاتم الخاص بالقنصلية .

20

إطمئن رجال المخابرات على دخول التابوت إلى باطن الطائرة ، وركب ثلاثة منهم على متن الطائرة ، فى صحبة الجثمان الطائر .

فى مطارالقاهرة كان فى إنتظار التابوت خمسة من رجال المخابرات بصحبتهم طبيب ، من أجل التدخل إذا إستدعى الأمر ، كان الدكتور ماورو مازال يعانى من أثار التخدير ، فأعطاه الطبيب حقنة من أجل الإفاقة ، وجد نفسه على فراش داخل غرفة ويحيطه عدد كبير من رجال المخابرات ، نظر للجميع بعينين زائغتين ، ثم سألهم من أنتم ؟ وماذا أفعل هنا ؟ أريد أن أذهب إلى منزلى ، رد عليه أحد ضباط المخابرات قائلاً : تريد أن تذهب إلى منزلك ، ليس سهلاً ، لأن هذا سوف يتطلب منك أن تسير مسافة طويلة ، قد تبلغ لأكثر من ألفين من الكيلومترات ، أنت هنا معنا فى ضيافتنا ، ومن الممكن أن نعاملك معاملة الضيوف ، إذا تعاونت معنا ، وإذا حاولت خداعنا أو الإلتفاف حول الحقائق ، فسوف ترى منا معاملة أخرى تماماً ، لن تتحملها .

حاول الدكتور ماورو الجلوس ولكنه لم يستطع ، فمازال يعانى مـن عـدم الإتـزان ، رجـع برأسه مرة أخرى نحو الوسادة ثم قال :

ـ من أنتم ؟

ـ رد عليه العميد حمدى إبراهيم وكيل المخابرات ، نحن رجال المخابرات العامة المصرية

ـ ولماذا أتيتم بى إلى هنا ؟

ـ من أجل أن نحاسبك على خيانتك لأستاذك الدكتور كلاوديو

ديزيديرى ، فقد تسببت فى موته هو وزوجته

ـ أنا لم أفعل شيئاً

ـ والبحث الذى وجدناه داخل منزلك فى روما ، ثم لماذا إختفيت بعد وفاته ؟ وأين ذهبـت ؟

ـ سوف أقول كل شئ ، ولكن أحب أن تعلموا بأننى لم أكن أعلم بأى شئ ، عن قتلـه بهـذه الطريقة البشعة ، كل ما فعلته هو نسخ البحـث الـذى كتبـه الـدكتور كلاوديـو ، وإرسـاله إلى صديق يهودى كان يتردد على المعبد اليهودى كل سبت

ـ ولماذا أرسلته له ؟

ـ كنت فى أحد أيام السبت فى المعبد كعادتى ، وكنت أقرأ فقرات من سفر التكوين ، ثم بعد ذلك قمت بالدعاء « يا الله بارك أرضنا وأجعلها مثمرة وأكثر نتاجها » وجدته بجوارى يقول : كيف تقول عكس ما تفعل ؟ سألته لماذا ؟ فقال : أنـت تـدعو بالبركـة والخيـر للـوطن ، وفى نفس الوقت تساعد أستاذك الدكتور كلاوديو فى بحثه المشترك مـع عـالم مصـرى ، مـن أجـل صناعة قنبلة نووية تقضى علينا

ـ وهل كنت تعلم أن للدكتور كلاوديو شريكاً فى بحثه ؟

ـ نعم ، ولكن لم أكن أعلم إنه مصرى

ـ وهل تكره المصريين ؟

ـ ليس كرهاً ، ولكن مازال هناك حاجز نفسى بينى وبينهم

ـ هذا ما جعلك تساعد صديقك

ـ لا ، أنا ساعدته من أجل حماية دولتنا

ـ ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ بعد وفاة الدكتور كلاوديو

ـ تقصد بعد إغتياله

ـ بعد إغتياله شعرت بذنب كبير ، لم أكن أتوقـع ذلـك ، فقـررت الإعتكـاف فى منـزلى ، ولم أذهب كعادتى إلى المعبد يوم السبت ، وجدته يطرق باب منزلى ، فتحت له وسـرت أمامـه إلى غرفة المكتب ، ثم جلسنا ، أخرج من حقيبته أوراق وقال : هذه منحة دراسية لك فى الجامعـة العبرية فى القدس ، شاملة السفروالإقامة وراتباً مجزياً كل شهر ، هذه تذكرة السـفر ، الطـائرة غداً فى الرابعة عصراً

ـ وهل سافرت ؟

ـ نعم ، وهناك إلتقيت بأكثر من عالم ذرة ، وكان موضوع البحث هـو محـور الأسـئلة ، ثـم قرروا أن نبدأ على الفور ، فى محاولة تطبيق هذا البحث عملياً

ـ وهل توصلتم لشئ ؟

ـ كانت معظم النتائج غير مبشرة

ـ غدا سوف تجلس مع بعض علمائنا لتشرح لهم بالتفصيل كل ما توصلتم إليه فى إسرائيل

إنصرف العميد حمدى إبراهيم وطلب من مساعديه حسن معاملته.

21

بعد جلسة طويلة بين الدكتور ماورو سانسونى والدكتور شلتوت ومساعده سعيد توفيـق ، تأكد الدكتور شلتوت من أن العلماء الإسرائيليين قد ساروا فى طريق أخر ، لـذلك لم يتوصـلوا لأى نتائج.

قرر رجال المخابرات إستمرار التحفظ على الدكتور ماورو لحين إنتهاء الـدكتور شـلتوت من أبحاثه ، وخروج القنبلة النووية المصرية للنور .

طلب الـدكتور شـلتوت مـن ضـابط المخـابرات حاجتـه لـبعضٍ مـن فئـران التجـارب ، والعقارب ، وحاجته أيضاً لعالم متخصـص فى علـم الحشـرات ، وآخـر فى علـوم السـميات ، وطبيب بارع فى علاج الأنسجة السـرطانية بالإشـعاع ، وعـالم فى الهندسـة الوراثيـة ، وجهـاز لقياس الإشعاع ، ثم قال : أريد هذه الأشياء فى أقصى سرعة .

بعد إنصراف ضابط المحابرات ، سأل سعيد توفيق الدكتور شلتوت قائلاً : لماذ كـل هـذه الأشياء ؟ وماذا سوف تفعل بفئران التجارب ؟ وما حاجتنا لطبيب وعالم حشـرات ، وعـالم فى السميات ، وعالم فى الهندسة الوراثية ؟ .

رد الدكتور شلتوت قائلاً : سوف أشرح لك كل شئ ، العمل الأساسى المطلوب منا هو الحصول على قنبلة نووية من مواد رخيصة ومتوفرة ، ولكن يبقى الشق الثانى من المشكلة ، إذا تعرضنا نحن إلى قنبلة نووية ، ماذا نفعل ؟ لذلك افكر فى طريقة من الممكن أن تحمى الشعب من خطر القنبلة النووية ، وهذا ما ذكرته سميرة موسى فى النوتة السوداء ، كان مجرد سؤال بعد ما رأته من تأثير تفجير قنبلتىّ ، هيروشيما ونجازاكى ، على الناس ، هل هناك طريقة للوقاية من أثار الإشعاع الناتج من إنفجار القنبلة النووية ؟ لذلك قررت أن تسير الأبحاث فى خطين متوازيين ، الردع والوقاية.

هدفى الأساسى من صناعة هذه القنبلة شيئان ، الأول أن تكون لها قوة تدمير كبيرة مساوية للقنبلة النووية أو الهيدروجينية ، ولكن فى نفس الوقت لا يكون لها أى تأثير لا على البشر ولا على البيئة ، قنبلة تدمر وتردع ، ولكنها لا تقتل وتخرب ، هذا ما أحلم به .

هل تعلم كم النفايات النووية التى تدفن فى دولنا الفقيرة ، ولا أحد يعلم عنها شيئاً ، يضعونها فى براميل ثم يدفنونها تحت الأرض على أبعاد متفاوتة من ثلاثة إلى عشرين متراً ، وهذا قد يؤدى إلى أضرار بالغة ، من تأثيرها على البيئة والمياه الجوفية .

هل تعلم أن بعض الدول الغربية تصر على أن تحتوى المعاهدات التجارية مع الدول النامية والفقيرة ، على بنود تسمح لها بإلقاء نفاياتها فى أراضى تلك الدول ؟ .

لقد أرسلت مدينة فلادليفيا الأمريكية شحنات من رماد المخلفات النووية إلى غينيا على أنها مواد خاصة لصناعة الطوب ، لذلك يظهر فى هذه الدول حالات من التورم والإنتفاخ والبقع الجلدية وسرطان الدم ، وسرطان الغدة الدرقية ، وسرطان الثدى بالإضافة لتشوهات خلقية لدى الأجنة ، والعقم عند الرجال .

أدركت الآن لماذا طلبت الإستعانة بتخصصات أخرى ، اليوم سوف أترك لك كل ما توصلت إليه من أبحاث بخصوص القنبلة النووية ، وغداً سوف نتناقش فيما توصلت إليه ، أما بخصوص الشق الآخر من الأبحاث الخاصة بالوقاية من أضرار الإشعاع النووى سوف نتحدث فيها فيما بعد ، والآن إذهب كى تستريح ، فغداً لدينا عمل شاق .

22

بعد تناول وجبة الإفطار ، وجد سعيد توفيق الدكتور شلتوتاً مازال قابعاً فى مكانـه ، يرسـم بقلمه دوائر متداخلة ، وخطوطاً متقاطعة ، ومستغرقاً فى نفس الوقت فى تفكير عميق ، لم ينتبـه لوجوده بجانبه إلا بعد لحظات .

دعاه للجلوس قائلاً : إجلس يا دكتور سعيد ، رد عليه سـعيد توفيـق وهـو يبتسـم سـاخراً .....دكتور ، لقد نسيت هذا الموضوع تماماً ، دعنا الآن نعمل من أجل الوطن ، ثم إذا كان فى العمر بقية ، سوف أرى ما يمكن فعله ، عنفه الدكتور شـلتوت قـائلاً : لا أحـب أن أرى هـذه النظرة الإنهزامية فى عينيك بعد اليوم ، لقد قمت من يومين بتسجيل إسمك فى جامعة القـاهرة لنيل درجة الكتوراه ، تحت إشرافى ، وكل شئ نتوصـل إليـه ، سـوف ينسـب لـك ، أنـا فقـط مشرف.

قام سعيد توفيق وقبل الـدكتور وسـأله فيمـا كنـت تفكـر منـذ قليـل ؟ رد عليـه : شـردت بذاكرتى ، وعدت بها إلى أيام الطفولة ، فى أوائل الستينات ، عنـدما قـام والـدى بشـراء تلفـاز أبيض وأسود ، تذكرت وأنا أشاهد حلقـات مسلسـل أمريكـى عـن الخيـال العلمـى باسـم « فلاش جوردون » ، كانت حلقات أسبوعية ، كنت أنتظرها كل يوم خميس

، كنت ألتصق بالتلفاز لمشاهدة مغامرات فلاش ، والدكتور زاركوف، وديل أردن ، وآلاتهم الخرافية ، من سفن صاروخية ، ودروع غير مرئية ، ومسدسات شعاعية ، ومدن فضائية ، والسفر عبر الزمان ، كل ذلك كان شطحات من الخيال العلمى ، ولكن ما كان يبدو مستحيلاً فى يوم ما ، قد يصبح حقيقة علمية مؤكدة أيضاً فى يوم ما ، وأنا فى فرنسا فى مطلع التسعينات ، قمت بشراء رواية كتبها « جول فيرن »عام 1863 ، ولكنها ظلت منسية ومهملة إلى أن إكتشفها حفيده بالمصادفة ، وتم نشرها فى عام 1994 وكانت بعنوان «باريس فى القرن العشرين » وقد تنبأ فيها الكاتب بما سوف تكون عليه باريس فى عام 1960 ، من آلات الفاكس ، وشبكة إتصالات عالمية ، وناطحات سحاب من الزجاج ، وسيارات تعمل بالبنزين .

صمت الدكتور شلتوت قليلاً ثم قال : هل إستوعبت ما قلت يا سعيد؟ إن الدراسة الجادة للمستحيل ، ليست درباً من دروب الخيال ، هل تعلم أن آينشتاين نفسه ، كان لديه يقين بإستحالة صناعة قنبلة ذرية؟.

وفليسوفاً مثل أفلاطون كان يراوده مثل هذه الأفكار الخيالية ، لقد ذكر ذلك فى كتابه « الجمهورية » بحصول الراعى الفقير «جايجس » على خاتم ذهبى بقوة سحرية تجعله غير مرئى .

إن العلم يا سعيد خليط من الخيال والفلسفة والأدب ، إن مانحلم أن نحققه ربما يكون مستحيلاً ، أو يقترب من الخيال ، ولكن مع العمل والإصرار ، قد يصبح حقيقة علمية ، الطريق صعب وطويل ، ولكننا بدأنا الخطوات الأولى منه ، وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة ، سوف نركز العمل كله على عنصر النحاس النقى ، هو فلز إنتقالى صلب ، ومادة لينة ، وتتفاعل بسهولة مع الجو، كميائياً وفيزيائياً ، أنا لدى يقين بأننا سوف نصل لنتائج مبهرة ، هل تعلم بأننى بعد صلاة الفجر كنت أقرأ فى المصحف الشريف« سورة الكهف» وتوقفت عند الآية 96 ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً « والقطر يا سعيد هو النحاس المذاب ، الله أوحى إلى ذى القرنين أن يضعه فوق الحديد ليعطيه قوة وصلابة ، حتى لا يستطيع يأجوج ومأجوج المفسدين فى الأرض من الخروج ، ونحن سوف نحصل على سد يحمينا من يأجوج ومأجوج هذا الزمان بالنحاس بإذن الله ، أنا عندى يقين بالنجاح .

فى المساء سوف يأتى العلماء الذين طلبتهم من ضابط المخابرات العامة ، وسوف يكون لنا لقاء مطول حول ما أفكر فيه .

23

إكتمل الفريق البحثى الذى طلبه الدكتور شلتوت ، وقد أتت بهم المخابرات المصرية جميعاً من المراكز القومية للبحوث ، الدكتور رفعت شريف للحشرات ، والدكتورة هند علام فى علوم السُميات ، والدكتور مجدى الحسينى فى الهندسة الوراثية ، والدكتور وائل الهايج للعلاج بالإشعاع .

جلسوا جميعاً ومعهم سعيد توفيق ، حول مائدة مستديرة ، والدكتور شلتوت واقفة أمامهم ، بجوار لوح خشبى أبيض اللون ، ملتصق بالحائط ، وبيده قلم خاص للكتابة على الخشب وقابل للإزالة بمجرد مسحه بقطعة من الأسفنج .

بدأ شرحه للجميع بمقدمة عن الذرة قائلاً : أى عنصر كميائى يتكون من ذرات ، والذرة تتكون من شحنات سالبة « الإلكترونات » التى تدور حول نواة موجبة الشحنة وصغيرة جداً فى المركز ، والنواة تتكون من بروتونات موجبة الشحنة ، ونيوترونات متعادلة .

وقام برسم للذرة وهويقوم بالشرح ، ولكن نحن هنا من أجل الأسلحة النووية ، وهى تنقسم إلى نوعين قنابل إنشطارية مثل التى ألقيت على هيروشيما ونجازاكى فى الحرب العالمية الثانية ، ويكون الإنفجار ناتجاً عن الإنشطار النووى لعنصر ثقيل مثل اليورانيوم 235 ، أو بلوتونيوم 239 ، وذلك بتسليط حزمة من النيوترونات على نواة هذه العناصر، فتؤدى إلى إنشطارها إلى عدة أجزاء ، وكل جزء جديد يحتوى على عدد من النيوترونات تكفى لتحفيز إنشطار أخر ، وتستمر هذه السلسلة من الإنشطارات وهكذا .

أما النوع الثانى من الأسلحة النووية ، فهوالقنابل الإندماجية ، وهى أشد فتكاً من القنابل الإنشطارية ، أحب أن أوضح شيئاً مهماً أن قوة إنفجار أقل قنبلة نووية الأن تعادل 200 ألف طن من مادة **T N T** شديدة الإنفجار ، ودرجة حرارة عشرة ملايين درجة مئوية ، وضوءاً أقوى من ضوء الشمس ، القنبلة النووية التى أستخدمت فى هيروشيما وكانت أصغر تدميراً من القنابل الموجودة الآن ، قتلت أكثر من 140 ألف شخص ، بالإضافة لأمراض التسمم الإشعاعى ، وسرطان الدم ، وتشويه الأجنة .

أنا الآن بمساعدة زميلى سعيد توفيق بصدد التوصل لصناعة قنبلة نووية ، ولكن من مادة لا تسبب بعد إنفجارها أى عوارض مضرة بالبيئة ، أو بصحة الأنسان ، قنبلة تدمر فقط ، وقوتها مثل القنبلة النووية العادية ، قد يسألنى أحدكم لماذا لا نصنعها بالطريقة التقليدية ؟ وهل يتوفر عنصر اليورانيوم فى مصر ؟ منذ الستينات والدولة مهتمة بهذا الموضوع ،

وعن طريق المسح الجوى المغناطيسى تبين وجود عنصر اليورانيوم فى أكثر من مكان ، فى جبل قطار ، وجنوب قنا وسفاجا ، وجنوب شرق أسـوان ، وجبـل الكهـوف والفرافـرة ، وأم بجمة ، وسانت كاترين .

لكن اليورانيوم موجود فى الطبيعة بصورة لا تصلح لصناعة القنبلة النووية ولا حتى كوقود للمفاعلات النووية ، ومن أجل تحويله يحتاج أجهزة طرد مركزى كثيـرة جـداً ، ومفـاعلات بقدرة كبيرة ، وهذا غير متوفر ، ولن تسمح لنا القوى الغربيـة بإمتلاكنـا لهـا ، لهـذا فكرنـا فى صناعتها حسب ما يتوفر لنا من خامات ومعدات ، هذا الجزء من الأبحاث سوف أقوم به أنـا وسعيد توفيق .

أما الجزء الثانى والخاص بكم ، وهنا سوف أطرح عليكم ما أفكر فيه ، وأترك لكم التفسير العلمى ، والبحث والتدقيق ، وسوف يقتصر دورى فقط على إعطاء المعلومة ، إذا تعلق الأمر بإستخدام الإشعاع ، وكيفية التعامل مع المـواد المشـعة ، والآن سـوف أشـرح لكـم بطريقـة مبسطة الغرض من الأبحاث التى سوف تقومون بهـا ، وأحـب أن أنـوه لكـم ، بـأنكم سـوف تعملون كفريق واحد .

الغرض الأساسى لأبحاثكم هو الحد من المخاطر التى تسببها الإنفجارات النووية على الناس ، والبيئة ، والزراعة ، وسوف أسرد لكم بعض الملاحظات التى توصلت إليها ، الأمصال ، واللقاحات، هل من الممكن الوصول إلى مصل أو لقاح ، يحصن الناس من أخطار القنابل النووية ؟ ثانياً توجد بعض الحشرات لها قدرة أكبر من قدرة الإنسان على تحمل أضرار الإشعاع ، مثل العقرب الذى يتحمل الإشعاعات أكثر من الإنسان 150 مرة ، هل هذا له علاقة بالسم الموجود بداخله ؟ أو بالجينات الوراثية ، أو طبقة الجلد ، أو ما تحت الجلد ؟ ثم أن التعرض للإشعاع قد يسبب الإصابة بسرطان الدم ، وفى نفس الوقت يستخدم الإشعاع فى علاج الأنسجة السرطانية ، أحب أن أوجه كلامى للدكتورة هند علام ، عملك مهم جداً للجميع ، لأنك سوف تحددين قدر السمية الناتجة عن تجارب زملائك ، وهذا سوف يتطلب منك عملاً مضاعفاً ، والآن أترككم جميعاً لأعمالكم ، مع تمنياتى لكم بالتوفيق ، هل لدى أحدكم أى سؤال .

تركهم الدكتور شلتوت وهم يفكرون فيما طرحه عليهم من أسئلة مشروعة ، تحتاج لإجابات .

24

تذكر الدكتور شلتوت شيئاً هاماً ، وهو عدم وجود الرسم الكروكى الذى قد أرسله لصديقه الدكتور كلاوديو ديزيديرى وسط الأوراق التى أرسلتها له المخابرات المصرية ، والتى كانت فى منزل الدكتور ماورو سانسونى .

تحدث مع رجال المخابرات عن شكوكه فى المعلومات التى أدلى بها الدكتور ماورو لهم ، لأن نقص هذا الرسم من وسط هذا الكم من الأوراق يدل على أهميته ، أو أنهم توصلوا فعلاً لصناعة هذا الجهاز ، وتوصلوا إلى معلومات تعمد إخفاءها عنكم الدكتور ماورو، لذلك لابد من الضغط عليه لمعرفة الحقيقة ، الوقت ليس معنا ، بل علينا ، لذلك أحب أن أكون معكم عند إستجوابه .

كان ماورو يتوقع هذا، لذلك عندما وجهوا له أول إتهام قال : سوف اقول لكم كل شئ ، لقد صنعوا فعلاً هذا الجهاز بمساعدة بعض العلماء الأمريكان ، وكنت معهم للإجابة عن أى شئ قد توصل له الدكتور كلاوديو ، وبدأوا العمل على عنصر النحاس ، ولكن كان ينقصهم شئ هام ، وهو كيفية إثارة النحاس ، وتفتيته ، وهذا الجزء لم يذكره الدكتور كلاوديو فى أبحاثه ، ولكن الشئ الأكيد أنهم قد توقفوا عن هذه الأبحاث ، ودليلى على ذلك هو سفر العلماء الأمريكان ، وإنهاء ندبى بدون ذكر أسباب .

لقد تذكرت شيئاً هاماً ، الأمريكان أحضروا معهم ماكينات لها القدرة على طحن النحاس ، حتى صار مثل الدقيق تماماً ، ثم بعد ذلك يضعونه داخل الجهاز ، والشيء الآخر ماكينات الطرد المركزى العملاقة ، ولكن لم ألاحظ إستخدامهم لها ، ولكنهم فى بعض الأحيان كانوا يصرون على عدم حضورى بعض التجارب ، ولم أطلع على الأبحاث التى كانوا يتوصلون إليها وكأنهم كانوا يقرأون المستقبل ، ويتوقعون وقوعى بين أيديكم يوماً ما .

هذا ما كنت أخفيه عنكم ، ظناً منى أننى أحمى وطنى ، ولكن المعاملة الحسنة التى وجدتها هنا ، جعلتنى أغيّر رأيى ، خاصة عندما أخفوا عنى الأبحاث التى كنت أنا السبب فى كشفها لهم ، إنهم عاملونى كيهودى درجة ثانية ، أنا على إستعداد أن أشترك معكم فى أبحاثكم ، ربما أكفر عن ذنبى ، فى التسبب فى مقتل الدكتور كلاوديو وزوجته ، أنا سوف أصف لكم الجهاز بكل دقة ، وكذلك ماكينة طحن النحاس ، أريد أن أعمل معكم كباحث إيطالى ، وسوف أكون مفيد لكم ، كل ذلك من أجل الإفراج عنى والسماح لى بالعودة إلى روما .

رد عليه العميد حمدى إبراهيم قائلاً : انت لست سجيناً ، ولكن متحفظ عليك فقط لحين الإنتهاء من الأبحاث ، ولكن بالنسبة للعمل مع فريق العمل ، هذا سوف يحدده الدكتور شلتوت ، إبتسم الدكتور شلتوت وقال : فى الوقت الحالى ، لست فى حاجة إلى خدماتك ، ولكن ربما أحتاجك قريباً ، أثناء الجزء العملى .

تحدث الدكتور شلتوت مع سعيد توفيق بخصوص شيئين ، الأول طحن النحاس ، والثانى أجهزة الطرد المركزى ، علق سعيد توفيق قائلاً : بالنسبة لطحن النحاس فهذا منطقى جداً ، حتى يتم إذابته بسهولة وسرعة ، أما أجهزة الطرد المركزى ، فهذا يتطلب التدقيق فى النظريات التى توصلنا إليها ، ربما تكون مفيدة فى تفتيت ذرات النحاس ، أو فصل الذرات ، أو فصل النحاس المخصب ، الذى سوف يترسب على إسطوانة الطرد المركزى ، التى تلف بسرعة فائقة تصل إلى 70 الف لفة فى الدقيقة ، ولكن من المتوفر لدينا من معلومات ، أنه من أجل صناعة قنبلة نووية واحدة يتطلب ذلك عمل عدد 1500 جهاز من أجهزة الطرد المركزى لمدة عام ، أنا أستبعد إستخدام أجهزة الطرد المركزى فى الأبحاث الخاصة بنا .

رد عليهالدكتور شلتوت قائلاً : لابد وأن نضع فى الإعتبار كل كلمة قالها الدكتور ماورو ، ثم إن أجهزة الطرد المركزى موجودة بالفعل ، من الغد سوف نبدأ فى الجزء العملى ، لذلك أطلب منك أن نعمل فى الفترة المسائية ، عندما ينتهى الآخرون من أعمالهم ، لأن ذلك يتطلب سرية تامة ، وتركيزاً كبيراً .

لم يلتزم سعيد توفيق بتعليمات الدكتور شلتوت ، وكان فى الثامنة صباحاً متواجداً فى المعمل ، ولكن ليس من أجل العمل ، ولكن من أجل الكتورة هند علام ، لقد لاحظ عدم وجود خاتم الزواج فى أصابع يدها ، « ورغم إنها فى الثلاثين من عمرها ، إلا أنها تتمتع بوجه طفولى ، وشعر كستنائى ، وعيون زرقاء ، فى لون البحر ، وفم مثل حبة الكرز ، فى لونها وحجمها ، وبشرة خمرية تميل للبياض » .

25

جلس سعيد توفيق فوق مكتبه وفى يده كوب من الشاى ، وفى اليد الآخرى سيجارة ، كادت نارها تحرق يده ، كان غارقاً فى ذكريات الماضى البعيد ،« ثريا أحمد حسن »، زميلته فى قسم الطبيعة النووية ، والتى وصلت إلى الفصل الدراسى الرابع بفضل عمها أبو الفضل حسن ، عميد كلية العلوم ، جامعة القاهرة .

كانت تربطه بها علاقة حب ، حيث كانت تقيم معه فى نفس الشارع ، بدأت قصة حبهما مبكراً ، وهما فى الصف الأول الثانوى ، كانا يتخذان ذات الطريق كل يوم فى الذهاب والإياب ، وفى الصف الثالث الثانوى وصلت العلاقة ذروتها ، حيث كانا يستذكران دروسهما سوياً ، بناءً على طلب والدتها ، حيث تحدثت مع والدته بشأن ذلك بسبب تفوقه الدراسى ، حيث أنها بعد وفاة والدها قد عانت من حالة نفسية منعتها من الذهاب إلى المدرسة لمدة شهرين ، لذلك طلبت من سعيد المساعدة والعون ، وهو كان فى غاية السعادة، رغم إعتراض أمه فى بادئ الأمر ، خوفاً من أن يؤثر ذلك على تفوقه ، لكن تدخل الحاج توفيق والد سعيد ، جعلها ترجع عن إعتراضها ، قال لها : إنها فتاة يتيمة، وتحتاج العون ، والنبى عليه الصلاة والسلام أوصى بالجار خيراً، « والله فى عون العبد ، ما دام العبد فى عون أخيه » توكلى على الله ، وسوف يكون هذا فى ميزان حسناتك .

نجحت ثريا بتفوق ، ورغم أن سعيد قد قُبل فى كلية الطب ، إلا أنه حـول أوراقـه إلى كليـة العلوم ، حتى يكون بجوار ثريا .

كانا لايفترقان ، وقد تمت خطبتهما وهما فى السنة النهائية ، وبعد التخـرج رغـم أن ترتيـب سعيد توفيق كان الأول على الدفعة ، إلا أن إدارة الكلية أعلنت عن عدم حاجتهـا لمعيـدين فى هذا العام .

دخل سعيد الجيش لتأدية الخدمة العسكرية ، وعمل ضابطاً فى سلاح الحرب الكيماويـة ، بعد عام تم تعيين ثريا معيدة فى قسم الطبيعة النووية بناءً على توصـية مـن عمهـا ، بعـد تنزيـل إعلان صورى فى إحدى الصحف القومية ، كان ذلك مرتباً وبعلـم ثريـا ووالـدتها ، ممـا أثـار غضب سعيد ، وعندما تحدث معها ، كان ردها صادماً له ، حيث قالت : أنت إنسان أنانى ، لا تحب إلا نفسك ، كان من المفترض أن تكـون سـعيداً بحصـولى عـلى هـذا المركـز ، لكنـك مازلت تعيش فى المجتمع الذكورى ، ولابد من أن تكون الزوجة تابعة لزوجها ، لا يحـق لهـا أن تتفوق عليه .

صمت سعيد للحظات وكأنه لم يستوعب ما قالته ثريـا ، أو انـه لا يصـدقه ، كانـت إنسـانة مختلفة عن ثريا التى عرفها ، لم يفكر كثيراً ، ترك لها خاتم الخطوبة ، ثم إنصرف وهـو مـازال صامتاً .

كل ذلك تذكره سعيد توفيق وكوب الشاى مازال فى يده ، ولكنه أصبح بارداً كمشاعر ثريا .

أزال مخلفات السيجارة من فوق المكتب ، ووضع كوب الشاى الفارغ بعد تناوله على دفعة واحدة ، على رف صغير بجانبه .

ذهب تجاه الدكتورة هند التى كانت تفحص شيئاً ما تحت المجهر ، وقف بجانها حتى تفرغ ، ثم حدثها قائلاً : صباح الخير يادكتورة ، أتمنى أن يكون العمل معنا ممتعاً ، قالت وهى ترفع النظارة الطبية من فوق عينيها : مازال الوقت مبكراً ، كى أكتشف ذلك ، ولكن بدايةً ، المطلوب منا شئ صعب ، ويكاد أن يكون مستحيلاً ، ولكن الشئ الغريب ، كيف توصل الدكتور شلتوت إلى هذه الإستنتجات ؟ كيف إستطاع أن يربط كل هذه الأشياء بعضها ببعض ، المصل واللقاح ، ودرجة تحمل العقرب للإشعاع ، والعلاج بالإشعاع ؟ إنه عبقرى .

رد سعيد توفيق قائلاً : الدكتور شلتوت لم يأخذ حقه فى التقدير حتى الآن ، لأنه بعيد عن الشللية ، وغير مجامل إلا فى الحق ، ولولا وفاة زوجته فى حادث أليم ، لكان من المرشحين لجائزة نوبل ، إن أبحاثه فى جميع الدوريات العلمية ، أنا سعيد جداً لأننى أعمل مع أستاذ عظيم مثله ، قالت هند:

ـ لم أر تلميذاً يمجد فى أستاذه مثلك لأنه يستحق ، إنه راهب علم

ـ هل توصلتم إلى شئ جديد فى بحثكما ؟

ـ اليوم سوف نبدأ الجزء العملى

ـ إذن لماذا لم يأت الدكتور شلتوت حتى الآن ؟

ـ لأن موعدنا فى المساء

ـ فلماذا أتيت الآن ؟

ـ أخشى ألا تروق لكِ إجابتى

ـ لماذا تقول هذا ؟

ـ لأنى جئت من أجلك

ـ من أجلى انا ، لم ترنى إلا بالأمس

ـ لذلك جئت ، لأنى أفكر فيكِ منذ الأمس

ـ أنت لا تعلم عنى شيئاً

ـ وأنتِ كذلك ، لا تعلمى عنى شيئاً

ـ أنا تزوجت العلم ، كما تقول والدتى دائماً

ـ وأنا والعلم وجهان لعملة واحدة

ـ الآن دعنى أكمل عملى ، وسوف يكون للحديث بقية

ـ هذا وعد ، إلى اللقاء ، أتمنى لكِ عملاً سعيداً .

26

فى المساء كان الدكتور شلتوت أكثر نشاطاً ، بعد أن أخذ قسطاً كبيراً من الراحة ، بدأ فى تصفح آخر ما توصل إليه بالأمس ، بعد أن وضع فى الإعتبار أجهزة الطرد المركزى ، وماكينات طحن النحاس .

أتت له المخابرات بماكينة مشابهة تستخدم فى فرم الحديد الخردة فى مصانع الحديد ، وقد ساعد ذلك على سرعة إنصهار النحاس ، قال سعيد توفيق : هذا مدهش ، طحن النحاس أدى إلى خفض مدة الإنصهار ، ويلاحظ إن النحاس عند درجة الإنصهار ، تهتز جزيئاته بشكل كبير ، وهذا سوف يؤدى إلى كسر الروابط الجزيئية، أو الفردية ، وبذلك تصبح الجزيئات حرة الحركة ، رد الكتور شلتوت قائلاً : هذا تفسير منطقى وعلمى ، لكن يتبقى الجزء الهام ، وهو إثارة النحاس ، والمفجر ، وكمية المادة المستخدمة فى التفجير الأوّلى ، كل هذه الأسئلة تحتاج إلى إجابات .

المفجر فى حد ذاته يحتاج إلى عملية مخابرتية من أجل الحصول عليه ، لأن صناعته تحتاج إلى تكنولوجيا غير متاحة لنا ، وتتحكم فى صناعته شركة أمريكية متخصصة فى صناعة الرؤوس المتفجرة ، وتعتبر ثانى أكبر شركة كيماويات فى العالم ، شركة « دو بونت » فى ويلمنجتون فى ولاية كارولاينا الشمالية ، ومن الصعب شراء هذه المفجرات ، لأنها غير مصرح ببيعها .

سوف نحتاج إلى مزيد من أجهزة الطرد المركزى ، وسوف تقوم المصانع الحربية بتوفيرها ، لذلك سوف نقوم بمراجعة الأبحاث مرة أخرى وفقاً للمدخلات الجديدة ، وسوف نحتاج إلى مطاحن أقوى ، من أجل الحصول على مسحوق نحاس عالى النعومة ، لأننى سوف أحاول إستخدام مسحوق النحاس مباشرة داخل أجهزة الطرد المركزى .

لقد تأخرنا كثيراً فى الإهتمام بالأبحاث الخاصة بالذرة ، فى معظم الأوقات كانت لأسباب متعمدة ، وحجج واهية ، ضعف الإمكانيات ، والبحث عن المكان المناسب لإنشاء المفاعلات ، والخوف من النتائج المترتبة على الإنفجار المفاجئ للمافعلات ، وفى معظم الأحيان لأسباب سياسية .

الفرق بيننا وبين الدول المتقدمة ، مثل الفرق بين عقارب الساعة، هم يتحركون بسرعة عقرب الثوانى ، ونحن نتحرك ببطئ عقرب الساعات ، ونحتاج إلى ثورة حتى نسير بسرعة عقرب الدقائق ، نحن نسير بقوة القصور الذاتى ، أى نرقص فقط قليلاً حتى لانقع ، وهم يسيرون بقوة الإندفاع والخيال ، يسيرون فى طريق مرسوم ، مخطط من قبل ، ونحن مازلنا نتخبط ، مازلنا نقوم بدور معامل التفريخ للعلماء ، كى يأكل الغرب لحومهم ، ونأكل نحن عظامهم بعدما يكونوا قد أستهلكوا

نحن لدينا ذاكرة الذباب ، وهم لهم ذاكرة الفيل ، التى تعى الأشياء والأماكن لسنوات عديدة ، هم يتعلمون من أخطائهم وأخطائنا ، ونحن نقع فى الحفرة ألف مرة ، ونلدغ ألف مرة ، ولا نتعلم .

إعتمدنا على معجزات أجدادنا ، وأن الطفل المصرى أذكى طفل فى العالم ، ولم نعمل على تنمية هذا الذكاء ، أشياء كثيرة يا سعيد تجعلنى أشعر باليأس ، والخوف من الغد ، نحن نعمل تحت ضغط الزمن ، نصارع طواحين الهواء ، ومخلفات الروتين ، والعقول العفنة ، وفى النهاية لابد وان نصنع من « الفسيخ شربات » .

أسف يا سعيد ، لأنى أثقلت عليك ، وحديثى السوداوى ربما يقلل من عزيمتك ، آسف يا صديقى ، فغداً تحل ذكرى وفاة زوجتى، لذلك أجدنى أهذى بالكلام ، ربما أواسى نفسى ، أنا ذاهب لغرفتى ، تصبح على خير .

27

بعد تناول وجبة الإفطار ، جلس أعضاء فريق البحث حول مائدة مستديرة ، وأمام كل واحد منهم مجموعة من الأوراق ، تحدثت الدكتورة هند علام قائلة : بعد تفكير عميق فيما قاله الدكتور شلتوت بخصوص اللقاح ، توصلت لشئ ما ربما يكون مفيداً ، وهو أن المقصود من عملية اللقاح ، هو تحفيز جهاز المناعة على تكوين أجسام مضادة ، ضد نوع محدد من الميكروب ، نفترض أن الميكروب هنا هو « الإشعاع النووى »، يتم ذلك بحقن الميكروب نفسه ، ولكن فى جرعات ضعيفة ، أى أن الميكروب نفسه يتم إضعافه وترويضه فى المعمل ، فيفقد شراسته وقوته ، ويستطيع الجسم أن يقاوم بفضل الأجسام المضادة التى كونها سابقاَ ، السؤال الآن موجه إلى الدكتور وائل هياج ، هل من الممكن إعطاء الإنسان جرعات مخففة أو مضعفة من الإشعاع ، على فترات متباعدة حتى يستطيع الجسم أن يكوّن أجساماً مضادة ضد الإشعاع على المدى البعيد ؟.

رد الدكتور وائل قائلاً : ليس الموضوع بهذه السهولة ، لأن أنسجة الكائنات الحية عندما تتعرض للأشعة النووية ، يحدث لها تغيرات كيميائية قد تؤدى إلى أضرار كبيرة ، وتزداد تلك التغيرات تبعاً لمقدار جرعة الإشعاع ، التى تم إمتصاصها ، ولكى تظهر نتيجة ذلك يمر بعض الوقت ، ويعرف ذلك بفترة الكمون .

تدخل الدكتور مجدى الحسينى قائلاً : ولكن أنتم تستخدمون الإشعاع النووى فى علاج السرطان ؟ بادره الدكتور وائل : نعم هذا صحيح ، و يتم ذلك من أجل تفتيت الكتلة المسرطنة فقط ، ولكن النظرية قائمة ، ولابد من التجريب على حيوانات التجارب ، ولكن من الضرورى إجراء التجارب على القردة ، لأن الإنسان من الناحية التشريحية ، يشابه القردة تماماً ، وكذلك تشابه دم بعض القردة مع دم الإنسان ، ونحتاج أيضاً أجهزة فى غاية الدقة لقياس درجة الإشعاع .

سألت هند الدكتور مجدى الحسينى عن الصفات الوراثية المصاحبة للحشرات التى تتحمل درجات مرتفعة من الإشعاع ، رد قائلاً : رغم إن الدكتور شلتوت قد طرح العقرب كمثال ، بسبب إنه يتحمل الإشعاع النووى أكثر من الإنسان 150 مرة ، إلا أننى سوف أعمل على الصراصير ، لأنها تعد من أقدم الكائنات ، وقدرتها الفائقة على إنتاج مضادات مناعية خاصة ، وكذلك تحملها لدرجات حرارة تصل 70 درجة مئوية ، وتحمل كروموزومات فى جيناتها الوراثية ، تحيل بينها وبين الهلاك ، لذلك سوف نعمل على تحليل حاملات الجينات الوراثية فى الصراصير ، أملاً فى ربط ذلك على جينات الإنسان

، وسوف نعمل أيضاً على كائن ميكرسكوبى ، يعرف بإسم خنزير الطحالب ، يتحمل درجات حرارة تصل إلى 357 درجة مئوية، ويتحمل أيضاً 5700 وحدة إشعاعية ، فى حين أن 10 وحدات إشعاعية كافية لقتل الإنسان ، وكذلك لابد من البحث عن أى فرد ، كان موجود أثناء إنفجار قنبلتيّ هيروشيما ونجازاكى وإستمر حياً دون أى تأثير ، ربما يكون حاملاً للمورثات الصرصورية .

ضحك الدكتور رفعت شريف أستاذ الحشرات ، ثم قال : ليتنى كنت صرصاراً ، هذه معلومات عظيمة ، لكن أريد أن أضيف شيئاً بسيطاً ، بما أننى درست النباتات ، أحب أن تعلموا أن شجر الجوز له قدرة كبيرة على إمتصاص الشعاع النووى ، وحسب التجارب إستطاع إمتصاص 53 ٪ من الإشعاع ، ربما زراعته بشكل كبير فى أماكن متفرقة يقلل من نسبة الأشعاع فى الجو .

28

كان سعيد توفيق جالساً مع أستاذ فى الرياضيات ، من أجل دراسة بعض النتائج الرياضية الخاصة بالمعادلات الكميائية ، والأوزان الذرية ، وكان يحاول إكتشاف الأخطاء ، التى من أجلها أعاد كتابة المعادلات من جديد ، فى تلك الأثناء كان أعضاء فريق العمل الجديد ، قد خلدوا إلى قسط من الراحة .

ذهبت هند علام صوب سعيد توفيق ، حاملة كوب من الشاى إليه ، ثم أخرجت كيساً من البلاستيك به بعض قطع من الكيك ، قد أعدتها والدتها بالأمس ، وضعت الكيك فوق منديل ورقى ، والتفتت نحوه قائلة : أراك اليوم مهموماً بشئ ما ، بالأمس كنت خفيف الظل ، تتحدث وكأنك مراهق ، وكنت تمزح طوال الوقت ، ما بك يا سعيد؟ قال : لا شئ ، مجرد أخطاء فى الحسابات ، والآن أعيدها من جديد لإكتشاف الخطأ ، وأنتم هل توصلتم لشئ ؟ قالت: لا ....لا حتى الآن مجرد رؤوس مواضيع ، تحتاج كثيراً من الجهد والعمل ، نحن نعمل فى أكثر من إتجاه ، ثم إن البحث النظرى الذى نجريه الآن ، يحتاج وقتاً طويلاً من أجل إثبات صحته عملياً ، ثم إن عملى يبدأ بعد عملهم .

دع الأبحاث جانباً الآن ، وحدثنى عن نفسك ، حتى نكسر ملل العمل الشاق والمبهم ، قال : أنا سعيد ووالدى الحاج توفيق يعمل مديراً فى وزارة الأوقاف ، ووالدتى ربة منزل ، رغم حصولها على شهادة جامعية ، ولى شقيق يصغرنى بخمس سنوات ، وشقيقة فى السنة النهائية فى كلية الإعلام ، تم خطبتها على صديق لى ، وتود أن تكون مثل سلوى حجازى ، أسرتى متحابة ومتعاونة .

مررت بقصة حب وحيدة إنتهت بالفشل ، أحببت فتاة لأكثر من عشر سنوات وبعد ذلك ، إكتشفت بأننى لم أعرفها قط ، باعت حب السنين من أجل أن تكون معيدة فى الجامعة ، غضبت منها ، لأنها إشتركت فى مؤامرة ضدى ، وضد الأخلاق ، فتركتها دون أن أحدثها فى شئ ، فى بعض الأحيان يكتشف الإنسان أن الكلمات أغلى من أن تقال لشخص ، خاب أملك فيه .

أنهيت فترة التجنيد ، وحصلت على درجة الماجستير فى الذرة ، ثم عملت فى مرفق نظافة القاهرة ، لا داعى لأن تسخرى منى ، فأنا الآن أعمل فى هيئة الطاقة الذرية بدرجة باحث ، وقريباً سوف أنال الدكتوراه ، نسيت شئ هام ، أحب وأن أسير تحت المطر ، ضحكت هند وقالت : هذا أول شئ نتفق فيه ، أنا أيضاً أحب السير تحت المطر ، ولكن وأنا حافية القدمين ، ضحك سعيد توفيق وقال وهو ينظر لقدميها ، واضح تماماً من حجم الحذاء .

أنا قلت كل ما أعرفه عن سعيد توفيق ، أريد أن أعرف من تكون هند عـلام ؟ قالـت وهـى تعبث فى خصلات شعرها :

أنا ولدت فى مدينة السويس ، وكان والدى يعمل مرشداً فى هيئة قناة السويس ، بعد حـرب 67 ، هاجرنا إلى القاهرة ، بعدها سافر والدى للعمل على إحـدى السـفن التجاريـة العمانيـة ، حيث توقف العمل فى قناة السويس ، كان يأتى كل ستة شهور ، كنت مازلت فى الصف الثـانى الإبتدائى ، حين تم تهجيرنا ، أنا وحيدة ليس لى أشقاء ، ولكن تعيش معنا عمتى والتى تكبرنى بعام واحد ، لقد تزوج جدى قبل وفاته بعامين ، بفتـاة تصـغره بخمسـين عامـاً ، وبعـد وفاتـه بخمسة شهور ، جاءت إلى والدى فى السويس ، وتركت إبنتها ، لأنها سوف تتزوج ، وزوجهـا لا يريد إبنتها معها ، لم يجد والدى بد من أخذها ، ولم أعرف أنها عمتـى إلا عنـدما رسـبت فى الصف السادس، وأصبحنا فى فصل دراسى واحد ، ورغم عطف والدى ووالدتى عليهـا ، إلا أنها كانت تكرهنى ، وتحاول تشويه صورتى أمام أصدقائى ، فصـرت منبـوذة مـن الجميـع ، وأصبحت أعانى من الإنطواء والوحدة ، حاولت والدتى إخراجى مـن هـذه الحالـة ، لكنهـا فشلت ، وأصرت أن تترك عمتى منزلنا وتذهب للعيش مع والدتها ، وإستمر والدى بالإنفـاق عليها .

عدم إندماجى فى دائرة الأصدقاء ، جعلنى أكون من المتفوقات ، وكان ترتيبـى فى الثانويـة العامة الثانى مكرراً ، ودخلت كلية الطب ، حتى هذه اللحظة ، لم يخفق قلبى لأحد .

فى الفصل الثالث ، تعرفت على شاب قروى ، كان هو الآخر إنطوائياً وخجـولاً ، وهـذا مـا جعلنى أتقرب منه ، كان يهوى التصوير الفوتوغرافى ، وفى عيد شم النسـيم ، ذهبنـا إلى مدينـة القناطر ، كانت هذه هى المرة الأولى والآخيرة التى أنفرد بها بشاب خـارج أسـوار الجامعـة ، بعد أن تناولنا الغداء ، طلب منـى أن يقـوم بتصـويرى ، فلـم أعتـرض ، بعـدها ثبـت كـاميرا التصوير فوق حامل معدنى ، ثم ضبطها على التصوير الـذاتى ، ثـم وقـف ملاصـقاً لى ، نهرتـه بعدها لأنه قام بعمل شئ بدون إرادتى ، قال وهو يعتذر : إنه شئ عفوى وغير مقصود تماماً ، ثم وعدنى أن يمزق هذه الصورة.

وفى يوم طلبت منى إحدى الفتيات المحجبات ، وكانت تسبقنى بعام ، أنها تريـد التحـدث معى ، كانت هذه الفتاه من ذات القرية التى يقطنهـا هـذا الشـاب ، قالـت لى : إنهـا رأت هـذا الشاب فى القطار هذا الصباح ، وهو يعرض بعض الصور الخاصة بـكِ عـلى أصـدقائه ، وقـد تلفظ بكلام غير لائق عليكِ .

قصصت للدكتورة تهانى ماحدث ، وكانت تدرس لنـا مـادة التشـريح ، تحـدثت مـع هـذا الشاب وطلبت منه أن يذهب الآن ويأتى بالصور والنيجاتيف ، وإذا علمت بأنه يحـتفظ بـأى صورة لى سوف يرسـب فى مـادة التشـريح إلى أن يصـل إلى البكـالوريوس ، بعـدها عـدت إلى قواعدى الأولى ، وحتى الآن لم أفكر فى الإرتباط .

29

فى مبنى المخابرات العامة ، كان رئيس المخابرات ، والعميد حمدى إبـراهيم ، فى إجتمـاع مطول من أجل مناقشة الموضوع الخاص بالمفجر ، وكيفية الحصول عليه ، والطريقة المـثلى فى إختراق شركة « دو بونت »المصنعة للمفجر .

تحدث أحد الضباط قائلاً : لدينا شـركة متخصصـة فى الكيماويـات فى كيـب تـاون ، مـن الممكن عن طريقها مراسلة شركة دو بونت ، حيث إنهـا تعمـل فى مجـال الكيماويـات ، ثـم نرسل مندوبنا إلى هناك من أجل توقيـع العقـود ، وهنـاك ربمـا نسـتطيع الإتفـاق عـلى توريـد المفجر .

تحدث العميد حمدى قائلاً : هذه فكرة ممتاذة ، ولكنى لا أتفق معـك بخصـوص الحصـول عـلى المفجر نفسه ، لأن ذلك فى حد ذاته شئ من الصعب الحصول عليه ، وحتـى إذا حصـلنا عليـه ، مـن الصعب إرساله إلى مصر ، لابد وأن نتذكر عملية « الكنوندور » والخاصة بالأسلحة الباليستية ، والتـى بسببها مازال عبد القادر حلمى فى سجون أمريكا ، لتورطه فى تهريب عدة أطنان من الكربـون الأسـود المعالج ، الذى يستخدم فى طلاء الصواريخ الباليستية ، كى تحجبها عن أجهـزة الـردار ، وتزيـد مـن سرعتها ، لأنها تقلل من نسبة إحتكاكها بالغلاف الجوى ، لو كان عبد القادر حلمى نجـح فى تسـريب كيفية عمل الكربون الأسود ، وقمنا نحن بصناعته ،

كنا إحتفظنا ببرنامج صناعة الصوايخ ، الذى تم وقفه لأسباب سياسية ، إذن المطلوب هو الحصول على الرسم والتصميم ، والمواد المستخدمة ، وسوف يقوم سلاح المهندسين بصناعته فى مصر ، لا نريد أن يتعرض المشروع للتوقف ، خاصة والموساد لديها علم بالأبحاث التى قام بها الدكتور شلتوت ، لذلك من الأفضل سرقة تكنولوجيا عمل وصناعة المفجر ، بدلاً من سرقة المفجر نفسه .

المخاطر هنا أقل ، ثم من السهل الحصول على شخص يأتى لك ببعض الأوراق ، لكن من المستحيل أن تجد من يضحى بعمره ومستقبله ، من أجل أن يأتيك بمفجر ، خاصة وأن هذه الأجزاء ، تصنع بالعدد ، ومرتبطة بكود رقمى من الصعب الخروج بها من المصنع بأى طريقة ، إذن نركز عملنا فى هذا الإتجاه ، جهز نفسك للسفر غدا إلى جنوب أفريقيا ، ليس لدينا متسع من الوقت ، إبعث برقية إلى مندوبنا هناك لتجهيز كل الأوراق الخاصة ، وأطلب منه أن يراسل الشركة كى تحدد موعداً لإستقبال المندوب ، وأرسل أيضا لمكتبنا فى نيويورك ، كى يؤمن وجودك هناك ، لا تنس كل المعلومات تكون على ميكرو فيلم ، الأن بسلامة الله ، ومن الأفضل عدم الإتصال بأحد حتى تصل إلى أرض الوطن ، وسوف يكون رجالنا فى أمريكا بجانبك طوال الوقت .

30

فى العاشرة مساءً ، سمع سعيد توفيق طرقاً على باب غرفته ، وجد أمامه ضابط المخـابرات ، الذى طلب منه أن يرتدى ملابسه على وجه السرعة ، سأله سعيد وهو فى حالة ترقـب ، مـاذا حدث ؟ قال ووجه إلى أسفل : توفى والدك الآن فى مستشفى المقاولون العرب ، وسـوف يـتم نقله صباحاً إلى المنزل ، حتى الآن لم يعلم أحد بالخبر ، لقد أخبرتنـا المستشـفى منـذ قليـل ، وجئت إليك لأصطحبك كى تلقى عليه النظرة الآخيرة ، فى عدم وجود أحد ، البقـاء لله ، لقـد دخل والدك المستشفى هذا الصباح ، إثر ازمة قلبية ، وقد علمنا ذلك فى الثامنـة مسـاءً ، وكنـا بصدد إبلاغك بهذا ، حتى يتسنى لك زيارته ، لكن يد القدر كانت أسرع منا ، لا تحـزن ، لقـد توفى يوم جمعة ، وفى نفس الوقت وقفة عرفات ، أدعو له بالمغفرة .

كان الموقف رهيباً ، بعد غيابه عن والده أكثر من ستة أشهر ، يذهب لرؤيتـه وهـو مسـجى على فراش الموت ، سوف يكون لقاء من طرف واحـد ، كـان يـود أن يخبـره بالنجـاح الـذى ينتظره ، بحلمه ن يراه دكتوراً ، وأن يراه يعمل فى تخصصه .

توضأ سعيد توفيق وأمسك المصحف الشريف ، وبدأ يقرأ سورة « ياسين » ، وعينه تذرف دمعاً ، وكأنها أنهار من نار ، تحرق قلبه الذى إنفطر على فراق والده .

فى الثالثة صباحاً جاءه الضابط مرة أخرى ليصطحبه إلى مكـان إقامتـه ، وقـال : إطمـئن فى الصباح سوف ننقل الجثمان إلى المنزل ، وقد أعددنا كل شئ ، وإذا كان لك رغبـة فى حضـور الجنازة ، دعنا نرتب لك ذلك ، ولكن من الأفضل عدم الحضور لأسباب أمنية .

وسوف نرتب لك زيارة قبره فى أى وقت تحدده ، سوف يرسـل لـك شـقيقك برقيـة عـلى عنوانك فى موسكو ، لابد من الآن أن تحدد ماذا تريد أن تفعـل ؟ ، هـل تريـد أن ترسـل لهـم بعض المال ؟ وتعلل عدم حضورك بسبب إنشغالك فى الدراسة ، أو تذهب لزيارتهم والبقـاء معهم بعض الوقت ، ولكن على ما أعتقد أن الوقـت لا يسـمح، وظهـورك فى هـذا التوقيـت ، سوف يجعلنا نعيد حسابتنا من جديد فى طريقة التأمين ، فنحن لا نعلم كيف يفكـر أعـداؤنا ؟ وهل توصلوا بصورة أو بأخرى ، إلى شخصيتك ، خاصة أنهـم لـديهم صـورتك الشخصـية ، التى أرسلها لهم ضابط جهاز الموساد« موسى أهارون».

أى خطأ سوف ينتج عنه أثار من الصعب علاجها ، التهوين من قوه الأعـداء ، يعنـى بدايـة الهزيمة ، هل تعلم أن أسرتك تحت المراقبة المستمرة ، من أجـل حمـايتهم ، خشـية وصـول رجال الموساد إليهم ، لذلك فضـلنا عـدم علمهـم بمـا تفعـل ، حتـى يكونـوا فى مـأمن مـن المخاطر .

الآن لابد أن أخبرك بشئ هام ، رغم إنه من صميم عملنا ، وسرى للغاية ، لقد إكتشفنا فتح خطاباتك الآخيرة والتى نقوم بإرسالها من موسكو ، ثم غلقها من جديد ، بطريقة إحترافية ، ولقد رصدنا ساعى البريد الذى يقوم بذلك ، وهو الآن تحت أعيننا ، ولم نقبض عليه حتى لا يثير الأنظار ، ونقوم بتتبعه من أجل معرفة باقى أفراد الشبكة الموجودة فى مصر ، وهم الآن يحاولون تتبعك فى موسكو .

لقد أعلمنا مندوبنا هناك ، برصد حركات مخابرتية ، بجوار عنوان السكن ، المبين على الخطابات ، هل عرفت الآن مدى خطورة ظهورك فى هذا التوقيت ، عند وصول برقية شقيقك إلى موسكو ، سوف نرد عليها ، بعدم قدرتك للعودة حالياً ، وسوف نرسل أيضاً تحويلاً بنكياً بمبلغ من المال .

إذهب الأن وحاول أن تستريح ، وسوف نذهب مساءً لزياة قبر والدك .

31

أبلغ ضابط المخابرات الدكتور شلتوت بنبأ وفاة والد سعيد توفيق ، كـى يواسـيه ، ويقـف بجواره للخروج من أحزانه ، ظل صامتاً عندما علم بالخبر ، بما يعرفه عن مدى إرتباط سعيد بوالده ، وفى نفس الوقت تذكر زوجتـه ، فـدمعت عينـاه ، فـأحزان الآخـرين دائمـاً ، تـذكرنا بأحزاننا « كل يبكى على ليلاه » .

أبلغ الدكتور شلتوت بدوره ، أفراد الفريق البحثى المساعد بالخبر .

توجهت الدكتورة هند علام إلى غرفة سعيد توفيق ، طرقت الباب بلطف ، ثم قالـت : هـل تسمح لى بالدخول ، دخلت وجلست فوق مقعد خشبى بجوار فراشه ، وتحدثت قائلة : البقاء لله ، علمت منذ قليل بالخبر ، ولا أعرف ما يقال فى مثل هـذه المواقـف ، لكـن مـا أعرفـه أن الكلام لا يخفف الأحـزان ، فدراسـتى للسـميات علمتنـى أن جسـم الأنسـان يـتخلص مـن السموم بتحويلها إلى مواد غير ضارة بواسطة الكبـد ، أو الـتخلص منهـا ، وكـذلك أحزاننـا ، لابد وأن نحولها إلى أشياء مفيدة ، مثل مزيد من العمـل ، أو نحـاول أن نـتخلص منهـا ، عـن طريق النسيان ، تجاربى القليلة فى الحياة ، تجعل العلم يغلب على طريقتى فى الحديث ، لكـن أريد أن أقول لك شيئاً ربما يخرجك قليلاً من أحزانك ، أنا أحبك ، قالت هـذه الجملـة ، ثـم خرجت مسرعة ، وذهبت إلى المعمل .

كان لكلمتها فعل السحر على سعيد توفيق ، الذى قام وتوجه مباشرة إلى المعمل ، فقبّله الدكتور شلتوت ووساه ، وكذلك فعل باقى الزملاء ، شكر الجميع ثم قال : تبقى الأحزان فى القلب ، لكن الملقى على عاتقنا من أعمال ، يحتاج منا الكثير ، لذلك أنا بينكم من أجل مزيد من العمل ، « قال جملته الآخيرة وهو ينظر إلى الدكتورة هند علام » .

تحدث الدكتور وائل الهايج مع الدكتور شلتوت ، بأنه بدأ تجاربه على نسناس الليمور ، بسبب تشابه دمه بدم الأنسان ، وذلك بتعرضه لموجات مخففة من آشعة « ألفا ، بيتا ، جاما » على فترات متباعدة ، ونحن فى إنتظار النتيجة ، وسوف يحتاج ذلك بعض الوقت ، وكذلك الدكتور مجدى الحسينى يعمل الآن على التحليل الكروموزومى والجينى للصرصور ، لعله يجد الجين المسئول عن قدرة تحمل الصرصور للإشعاع ، وكذلك يعمل الدكتور رفعت شريف على كائن ميكرسكوبى يسمى « بخنزير الطحالب » الذى يتحمل 5700 وحدة طيف من الإشعاعات القاتلة ، العمل مستمر ، ولكننا نريد مزيد من حيوانات التجارب ، ونريد أيضاً أستاذاً متخصصاً فى علم الحيوان ، لملاحظة تغير سلوك الحيوانات بعد تعرضها للإشعاع ، وما يطرأ عليها من أمراض .

شكره الدكتور شلتوت ، وأثنى على المجهود المبذول من أجل الحصول على نتائج سريعة .

32

وصلت برقية من مدينة فلادلفيا ، من رجـل المخـابرات المصـرى الموجـود هنـاك ، بها تقرير عن شركة دو بونت ، وحجم تعاملاتها ، وعن الأسماء المرشحة لتجنيدها ، والظـروف الخاصة بكل منهم ، وقد أشار التقرير إلى رجل مال يهودى من أصل كنـدى ، قـد قـام بشـراء نسبة كبيرة من أسهم الشركة ، وإسمه « إدجار برونفمان » ولد فى مونتريال ، ومن أسرة ثريـة ، ويمتلك والده شركة سيجرام الخاصـة بصـناعة وتقطيـر الخمـور ، إنتقـل إلى نيويـورك ، ثـم حصل على الجنسية الأمريكية ، وقد ترأس عام 1981 المـؤتمر اليهـودى العـالمى ، ويحتـل مراكز مهمة فى اللجنة الأمريكية اليهودية ، وأكبـر ممـول للنشـاط الإسـتيطانى الأسـرائيلى فى فلسطين المحتلة ، وساعد اليهود الروس على الهجرة لإسرائيل ، وقد أشار التقرير أيضـاً ، إلى إحتمال وجود عناصر من الموساد داخل الشركة ، تحت أسماء وأعمال مستعارة ، لـذا يـرى مرسل البرقية ، توخى الحذر التام ، وعدم التعامل مع أى شخص ، خارج الأسماء المصاحبة لهذا التقرير .

بعد أن حددت الشركة موعداً لإستقبال مندوب شركة الكيماويات الموجودة فى كيب تاون ، والتابعة للمخابرات المصرية، سافر على أثرها ضابط المخابرات المصرى « حسين قاعود » من مطار كيب تاون بجنوب أفريقيا ، متوجهاً إلى واشنطن ، ومنها إستقل طائرة أخرى إلى فلادلفيا ، كان فى إنتظاره فى المطار مندوب شركة دو بونت ، الذى إصطحبه معه فى سيارته ، إلى مدينة ويلمنجتون التى بها مقر الشركة ، والتى تبعد عن فلادلفيا أكثر من ساعة ونصف ، كانوا رجال المخابرات المصرية يتتبعون السيارة عن بعد ، وتأكدوا من عدم تتبع أى أطراف أخرى لها .

عند دخوله الشركة ، شعر حسين قاعود ، إنه يدخل إلى مدينة صناعية متكاملة ، حيث ساروا بالسيارة داخلها لأكثر من خمس وعشرين دقيقة ، وعلم من مرافقه ، بأن الشركة يعمل بها أكثر من خمسين ألف عامل .

كان توماس لويس مسئول إبرام العقود بالشركة ، فى إنتظار حسين قاعود ، رحب به وطلب منه أن يجلس ، بادره حسين قائلاً : قبل كل شئ ، أحب أن أهنئك على هذا الصرح الصناعى والعلمى الكبير ، وأود أن ننال شرف الموافقة على مد يد المساعدة الفنية والتقنية ، الخاصة بإنشاء خط لإنتاج المبردات ، فى جنوب أفريقيا ، ونحن على إستعداد للموافقة على جميع الشروط والبنود ، ونحن على إستعداد أيضاً ، أن ننتج هذه الأجهزة تحت إسم شركتكم ، وسوف أترك لكم حرية الإختيار .

بعد أن إستمع السيد توماس لويس لحديث حسين قاعود ، قال على الرحب والسعة ، سوف نناقش هذا الموضوع فى المساء ، على عشاء عمل ، وسوف ينضم إلينا السيد بيكر ميرل رئيس القطاع الهندسى ، والآن سوف يقلك السائق إلى الفندق ، وهو لا يبعد كثيراً عن مقر الشركة ، وسوف نرسله لك فى المساء ليصطحبك إلى المطعم .

فى المساء كان حسين قاعود ، يجلس على مائدة الطعام فى إنتظار وصول توماس لويس و بيكر ميرل ، وكان قد أحضر لهم بعض التحف المصنوعة من العاج ، وكذلك بعض الهدايا المصنوعة من جلود الثعابين ، شكره توماس ثم قال : هدية رائعة ، ولكن هذه المنتجات ممنوع دخولها لأمريكا ، وكان من الممكن أن تسبب لك مصاعب ، إذا وجدوها معك ، وقد سُن هذا القانون من أجل الحد من المجازر المتواصلة للفيلة ، التى يتم صيد أكثر من خمسة وعشرين ألف فيلاً منها سنوياً .

ربت بيكر ميرل على كتف حسين قاعود وقال : لا عليك مما يقوله توماس ، حقاً هدية رائعة ، سوف تسعد بها زوجتى كثيراً ، لقد زارت أكثر من بلد أفريقى ، وتعشق المنتجات اليدوية التى يصنعونها ، وفى المنزل يوجد جزء خاص بهذه المنتجات ، سوف أطلعك عليها إذا قبلت دعوتى على الغداء فى عطلة نهاية الأسبوع، أومأ حسين برأسه وهو يبتسم وقال : إنها فرصة عظيمة كى أرى المعرض الأفريقى الخاص بزوجتك ، ضحك الجميع وبدأوا فى تناول العشاء .

أثناء العشاء تحدث توماس لويس بأن الشركة من الممكن أن تمد شركتكم ، بغاز الفريون الجديد والملائم للبيئة ، وكذلك مواد الطلاء الحديثة ، التى لا تتأثر بالعوامل الخارجية ، أما بخصوص الشراكة ، فإن سياسة الشركة تمنع ذلك ، ولكن من الممكن تقديم المساعدة الفنية ، وإرسال فريق من الفنيين للتدريب .

علق بيكر ميرل قائلاً : من الممكن الأستعانة ببعض العمال المهرة الذين تركوا العمل بسبب بلوغهم السن القانونية للتقاعد ، ولكن لديهم قدرة على العمل ، وهذا الأنسب لك ، قال حسين قاعود : هذا شئ رائع ، ولكن لابد من الرجوع لإدارة الشركة .

شعر حسين قاعود ، بأن بيكر ميرل هو الشخصية المناسبة ، خاصة وأن إسمه موجود فى قائمة الأسماء التى أرسلها جهاز المخابرات ، ولكن لابد الأخذ فى الإعتبار ، شكوك المخابرات فى وجود عناصر للموساد فى الشركة .

أرسل حسين قاعود برقية للمخابرات ، لإبداء الرأى بخصوص بيكر ميرل ، فأعطت المخابرات الضوء الأخضر له بالتحرك ، وقد طلبت منه المخابرات أن يتحدث عن رغبة جنوب أفريقيا فى العودة لإمتلاك أسلحة نووية ، بعد ما قامت بتفكيك وتدمير ما لديها من أسلحة فى التسعينيات ، خاصة وأن حسين قاعود لديه جواز سفر جنوب أفريقى .

33

عند دخوله غرفته فى الفندق ، وجد حسين قاعود ، ضابط المخابرات المصرى فى إنتظـاره ، بعد تبادل التحية ، قال له الضابط : هناك بعض المعلومات خاصـة ببيكـر ميـرل ، فهـو محـب للمال ، وزوجته تحب إقتناء التحف والمجوهرات ، وترتبط بعلاقة حميميـة بصـديق زوجهـا بيتـر فانس ، ومن السهل تجنيدها من أجل التأثير على زوجها ، وهذا القرص المضـغوط يحتـوى عـلى إحدى اللقاءات الحميمية ، بين الزوجة والصديق ، لا تستخدم هذا الكارت إلا عند الضـرورة ، أو بمعنى أدق عند فشلك فى تجنيد بيكر ميرل .

قام حسين قاعود بشراء بروش من الذهب الأبيض ، عـلى شـكل قلـب مرصـع بعـدد مـن الفصوص الكريمة ، وطقم زراير وماسك للكرافت من الذهب .

فى منتصف النهار ، كان حسين قاعود أمام منزل بيكـر ميـرل ، يحمـل باقـة مـن الزهـور ، إستقبله بيكر وزوجته ، عند باب المنزل الخارجى ، قبّلته زوجة بيكـر وشـكرته عـلى الهـدايا الثمينة التى أرسلها مع زوجها ، وقالت إنها عاشقة لأفريقيا ، وأنهـا قـد تطوعـت للـذهاب إلى الصومال لمساعدة الأطفال ، وإنقاذهم من شبح الموت جوعاً

، وإنها بصدد تبنى طفلاً صومالياً ، وتنتظر موافقة السلطات الأمريكية، كان حسين قـاعود مازال واقفاً لسماع زوجة بيكر ، التى إكتشفت ذلك ، فدعته للجلـوس وهـى تقـول : أعـرف إننى إمرأة ثرثارة، دائماً بيكر يقول لى « إنكِ تتحدثين أكثر مما تتنفسين»

ضحك بيكر وهو يقول : ولكن مازلت أحبك ، وذلك بسبب إستخدامى لسدادت الأذن .

قدم حسين الهديتين لهما ، فقاما الأثنـين وقـبلاه ، وكـادت أن تـرقص زوجـة بيكـر مـن السعادة ، وهى تضع البروش على صدرها أمام المرآة ، ثم عادت وقبلته مرة أخرى .

بعد تناول الغداء ، خـرج الجميـع إلى الحديقـة الملحقـة بـالمنزل ، وبعـد تنـاول القهـوة الأمريكية السوداء ، إنفرد بيكر بحسين قاعود من أجل التحدث بخصـوص العمـل ، أخـرج بيكر من جيب سترته كشفاً، به عدد من أسماء العمال السـابقين ، والـذين لـيس عنـدهم أيـة موانع للسفر والعمل معه ، فى نظير أجر مرضى .

لأنك إذا إستعنت بعمالة من الشركة ، سوف يكلفك ذلك ضعف الأجر ، لأنهم سيذهبون بصفتهم خبراء ، أرجوك هذا الموضوع يظل سراً بيننا ، لأن إذا علمت الشركة بذلك ، سـوف تسبب لى كثراً من المصاعب ، إبتسم حسين قاعود وقال : لا داعى للقلق إطلاقـاً ، ولكـن أود وأن أحدثك فى شئ آخر ، أنت تعلم أن جنوب أفريقيا كانت تمتلك الأسلحة النووية ، ولكنها قامت بتفكيكها وتدميرها لأسباب سياسية ، ولكن القيادة السياسـية فى الـبلاد ، تريـد إرجـاع هذا المشروع من جديد ، وأريد منك العون والمساعدة .

كان ضابط المخابرات المصرية يراقب الموقف بدقة من مكان مقابل لمنزل بيكر ، حتى يستطيع التدخل إذا لزم ذلك .

رد بيكر ميرل قائلاً : شركتنا غير متخصصة بالأبحاث النووية ، وليس لديها سابقة أعمال فى ذلك ، بادره حسين قاعود قائلاً : المفجر ، أو بمعنى أدق رؤوس التفجير ، أنا أعلم أن شركتكم متخصصة بصناعة هذا النوع من المفجرات ، نظر بيكر حوله قبل أن يتحدث ، ثم قال : من الصعب خروج هذه الأجهزة من الشركة ، لأنها مسجلة ومرتبطة بأجهزة خاصة للمراقبة ، ويصدر عن تحريكها، رنين أجهزة الإنذار ، شعر حسين قاعود بأنه أصبح قادراً على الحصول على ما يصبو إليه ، قال وهو يقترب من وجه بيكر ، أنا لا أريد المفجر ، أنا أريد فقط الرسومات الهندسية ، وطريقة الصناعة ، والمواد المستخدمة ، نظير نصف مليون دولار.

رجع بيكر برأسه للخلف ، وصمت للحظات ، ثم قال : أنا أحتفظ بقرص مضغوط عليه كل ما تحتاجه من معلومات ، سوف أعطيه لك غداً ، عندما تجهز المبلغ المتفق عليه ، ولكن يتبقى شيئان ، لم يتطرق لهما القرص المضغوط ، سوف أحدثك بهما غداً .

دبر ضابط المخابرات المبلغ المطلوب ووضعه فى غرفة حسين قاعود بالفندق .

فى السابعة صباحاً ، كان بيكر فى غرفة حسين قاعود ، الذى أصر على أن تكون المقابلة فى الفندق حتى يتم تصويرها ، صوتاً وصورة ، بعد أن رأى بيكر النصف مليون دولار ، أخرج من حقيبته الجلدية القرص المضغوط .

طلب حسين قاعود من بيكر ميرل بناءً على طلب ضابط المخابرات ، أن يقدم له شرحاً تفصيلياً ، على طريقة عمل المفجر ، قال بيكر بعد أن وضع حقيبة النقود بجواره ، المفجر عبارة عن جهاز فى غاية التعقيد ، من الناحية الميكانيكية ، ويعتمد عمله على إختلاف الضغط الجوى بإختلاف الإرتفاعات ، ويصنع من فقاعة رقيقة جداً ، من معدن ممغنط ، ثم أخرج مظروفاً ورقياً به شريحة من هذا المعدن ، أما بخصوص المادة الموجودة داخل المفجر ، والمسؤلة عن إطلاق النيترونات التى تسبب بداية التفاعلات الإنشطارية ، مادة « ديوتريد اليورانيوم » وفى هذا المظروف ورقة مبين بها التركيب الكميائى لهذه المادة ، وطريقة تحضيرها ، ويوجد أيضاً كمية الضغط المطلوبة ، وهذا يعتبر سر من الأسرار العسكرية.

إنصرف بيكر ميرل تاركاً حسين قاعود يحتفل وحده بنشوة الإنتصار .

إتخذ حسين قاعود طريقه للعودة ، من فلادلفيا إلى واشنطن ثم إلى كيب تاون ثم إلى القاهرة .

34

إستطاع سلاح المهندسين ، وسلاح الحرب الكيماوية ، بعد شهرين من العمل المتواصل ، صناعة عدد من المفجرات ، التى تم تجريبها ، وأدت عملها بنجاح ، وقد حضر الدكتور شلتوت ومساعده سعيد توفيق التجربة ، وأشادا بالجهد المبذول ، ثم أعطى رسماً تفصيلياً بشكل الجسم الخارجى للقنبلة النووية ، حتى يتم تصنيعها ، لأنهم قد إقتربوا من الإنتهاء من الجزء العملى ، ويتبقى فقط الجزء التنفيذى ، حين تتوفر الكمية المطلوبة من النحاس المخصب ، وهذا سيتوقف على عدد أجهزة الطرد المركزى المتوفرة.

فى وسط هذا الزخم من العمل المتواصل ، يقرر سعيد توفيق الزواج من الدكتورة هند علام ، التى تبدى موافقتها ، فيتصل الدكتور شلتوت بضابط المخابرات ، كى يأتى فى أسرع وقت ومعه مأذون شرعى ، لأن سعيد توفيق قرر الزواج من هند علام ، أراد الدكتور شلتوت بذلك إضفاء البهجة على سعيد توفيق ، خاصة بعد وفاة والده ، وفى نفس الوقت فرصة لخروج مجموعة الباحثين من حالة الملل ، بسبب العمل المتواصل ، حضر ضابط المخابرات ومعه المأذون ، وبعض الحلوى ، وقد قام بشراء منديل أبيض ، وظل ممسكاً به طوال عقد القران ، حتى يتمكن من الحصول عليه .

إحتفل الجميع بالعروسين ، بعدها قرر الدكتور شلتوت إعطاءهم إجازة ثماني وأربعين ساعة عسل .

كانت هند فى غاية السعادة ، حيث أن الظروف التى جمعتها بسعيد توفيق ، غير مرتبة ، وغير منطقية ، بعد أن رفضتُ كثيراً من الرجال الذين تقدموا للزواج منها فى منزلها فى الطابق العاشر ، وكل منهم تتوفر فيه كثيراً من الشروط التى تتمناها أى فتاة ، ثم بعد ذلك تتزوج برجل ليس لديه أية إمكانيات ، إلا عقله ، ويتم زفافها تحت الأرض وسط المعدات ، وحيوانات التجارب ، وقطعة حلوى مع كوب بلاستيك به مشروب ، وتي شيرت وبنطلون من الجينز ، بدلاً من فستان الزفاف ، وقهقهة القردة بدلاً من زغاريد النساء ، ربما كانت سعيدة لأنها تزوجت بطريقة غير تقليدية ، سوف تتندر بها كل فتيات العائلة لعقود طويلة ، زواج غير عادى ، لشخصين غير عاديين ، هذا هو العدل .

لاحظ سعيد توفيق شرود زوجته ، فقال : فيما تفكرين ؟ هل تشعرين بأنكِ قد تسرعتِ فى أخذ قرار الزواج ؟ أم كنتِ تبغين أن يكون إحتفال زفافك بشكل لائق ؟ وضعت وجهه بين راحتيّ كفيها وقالت : ما تمنيت أكثر من ذلك ، كم أنا سعيدة بك ، وبحبك الكبسولة ...لقد أعطيتنى كل الحب فى جرعة واحدة ، شفى كل جراح الماضى ، وحببنى فى يومى ، وطمأنى على غدى .

قال وهو يضمها إليه : أنت أحلى شئ حدث لى ، كانـت أكثـر طموحـاتى أن أحلـم بـإمرأة مثلك حبيبتى ، كنت دائماً وأنا أقـرأ لنـزار قبـانى ، أتوقـف عنـد قصـيدة « تهويمـات صـوفية لتكوين إمرأة » الآن فقط عرفت لماذا كانت تجذبنى هذه القصيدة ، لأنها مكتوبة لـك ، حـين يقول فيها لحبيبته :

لو لم تكونى أنت فى لوح القدر

لكنت كونتك يا حبيبتى

بصورة من الصور

كنت إستعرت قطعة من القمر

وحفنة من صدف البحر وأضواء السحر

كنت إستعرت البحر والمسافرين والسفر

كنت إخترعت الغيم ياحبيبتى

من أجل عينيك وأنزلت المطر

لو لم تكونى أنتِ فى حياتى

ما كان فى الأرض هواء أو مياه أو شجر

ما كان فى الأرض بشر.

هذا ما أشعر به الآن وأنا معكِ ، وأنا لم أكوّنك ، ولم أصنعك ، لكنكِ كنتِ فى لـوح القـدر ، ما أحلى هدايا القدر ، حينما تكون مثلكِ.

قبل أن ألقاكِ ، كانت حياتى خاوية ، وأيامى متشابهة ، وطموحى محدود ، وثقتى فى نفسى وفى الناس معدومة ، لذلك لم أكوّن صداقات ، وبعد فراقى للفتاة التـى كنـت أحبهـا ، لم أفكـر لحظة فى تكرار التجربة ، إلى أن رأيتكِ ، شعرت بدفئ يتسلل لقلبى ، وتعلقت عينـاي بأصـابع يديكِ باحثاً عن الحلقة الذهبية ، لا أعرف لماذا فعلت ذلـك ؟ ولمـاذا ظـل طيفـكَ ملاصـقاً لخيالى طوال الليل ، هل تعلمين لماذا ؟ لأن أول العشق النظر ، لقد سأل أحد الحكمـاء جمعـاً من الأدباء قائلاً : هل فيكم عاشق ؟ قالوا : لا ، فقال لهم : إعشقوا ، فإن العشق يطلق اللسـان ، ويفتح جبلة البليد والبخيل ، ويبعث على التلطـف وتحسـين اللبـاس ، وتطييـب المطعـم ، ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة .

عرفتِ الأن لماذا أُطلق لسانى ؟ لأنى أعشقك ، وتعرفين لماذا أعشـقك ؟ لأن عشـقكِ سـوف يزيد حركتى وذكائى ، كى أحقق أمال المصريين ، أنى أحببتكِ قبل أن أحبك ، وعندما ننتهـى مـن مهمتنا ، سوف نقضى سوياً ، أحلى أيام عسل وحب وهناء ، سوف أطوف بـكِ كـل أنحـاء قلبـى ، لترى تربعكِ أنت فقط على كل صماماته وشرايينه ، لن يفرقنا إلا الموت ، لأن من يجمعهم القـدر ، لا يفرقهم إلا الموت.

35

توصل المركز القومى للبحوث الزراعية ، لسلالة من شجر الجوز تصلح زراعتها فى الأجواء المصرية ، وقد بدأوا فى زراعة عدد كبير من الشتلات ، تمهيداً لزراعتها على نطاق واسع .

وقد تبين من الدراسات التى تم إجراؤها ، أن وجود عدد من الأحماض الدهنية ، هو الذى يساعد هذه الأشجار على إمتصاص الإشعاع ، خاصة آشعة جاما المدمرة والخطيرة ، وأوصت الدراسة بمحاولة فصل هذه الأحماض الدهنية ، وإدخالها فى صناعة الكريمات الخاصة بالجسم ، وقد أكد الباحثون عدم الإستهانة بالتوصيات الخاصة بزراعة شجر الجوز ، حيث إن الخبراء الروس أكدوا أن شجر الجوز الموجود فى محيط مفاعل تشرنوبيل قد إستطاع سحب 53٪ من الإشعاع النووى بعد إنفجار المفاعل .

إهتم الدكتور شلتوت بهذه الأبحاث ، وتحدث مع الدكتور رفعت شريف ، وشكره على فكرته العبقرية ، وطلب منه محاولة تدليك جلود حيوانات التجارب بزيت الجوز ، قبل تعرضها للإشعاع ، ومقارنتها ، بالحيوانات التى لم يتم معاملتها بالزيت ، ثم سأله عن أخر ما تم بالنسبة للتحليل الجينى للصرصور .

قال : مازلنا نعمل أنا والدكتور مجدى الحسينى على ذلـك ، لأن فـك الشـفرات الوراثيـة يحتاج إلى بعض الوقت ، والآن يتم معاملة أكثر من نوع مـن الصراصـير بالإشـعاع ، والنـوع الذى لا يتحمل الإشعاع ، يتم بعد ذلـك عمليـة المزاوجـة بينـه وبـين النـوع الـذى يتحمـل الإشعاع ، لتحديد الجين المسؤول عن تحمل الصرصور للإشعاع ، ولكـن حتـى الآن جميـع السلالات تتحمل الإشعاع ، ولكن مازال البحث مستمراً عن سلالات آخرى .

جاء الدكتور وائل الهايج ، وبيده بعض الأوراق البحثيـة مهلـلاً ، ووجـه حديثـه للـدكتور شلتوت قائلاً : بعد تعرض القردة لومضات قليلة مـن الإشـعاع عـلى فتـرات ، ثـم تـم زيـادة الجرعات تدريجياً ، وقد لاحظنا فى بداية التجارب ، بعض التغيرات الفسـيولوجية ، وظهـور بعض السرطانات ، ومع مرور الوقت ، وبعد الجرعة العاشرة ، كانت نتيجـة التحاليـل تظهـر تحسناً واضحاً ، وإختفاء للسرطانات التى تكونت ، وقد تم تعـريض هـذه القـردة بعـد ذلـك لنسبة مرتفعة من الإشعاع النووى ، ولم يحدث أى تغيـر فى الوظـائف الفسـيولوجية للقـردة ، مما يعنى أن أجسام هذه القردة قد كونت أجساماً مضادة ، ضد الأشعاع النووى ، وهذا يعنـى أنه من الممكن حدوث ذلك لجسم الإنسان ، ولكن هذا يحتاج إلى تصريح من وزارة الصحة ، ويحتاج أيضاً إلى بعض المتطوعين ، وأنا أقترح أن يتم إجـراء هـذه التجـارب، عـلى بعـض المساجين المحكوم عليهم بالإعدام ، بعد أخذ موافقتهم على ذلك .

قال الدكتور شلتوت : هذا رائع ، أكتب لى تقريـراً مفصـلاً عـن ذلـك ، حتـى أتمكـن مـن مخاطبة الجهات المسؤولة .

36

تأكدت الموساد عدم وجود سعيد توفيق فى روسيا ، بعد أن كثفت جهودها ، وتأكدت من مصادرها فى الجامعات المختلفة ، عدم تسجيله فى أى منها ، لذلك بدأت توجه إهتمامها مرة أخرى ، إلى إحتمال وجوده فى مصر ، وإن قصة وجوده فى روسيا ، لعبة مخابرتية ، المقصود منها ، توجيه نظرنا إلى إتجاه آخر ، لذلك طلبت من عناصرها فى مصر تشديد الرقابة على عائلة سعيد توفيق ، وتحديد الأماكن التى يترددون عليها ، والتأكد من عدم تواجد المخابرات المصرية فى محيط محل إقامة العائلة ، وطلبت من ساعى البريد بعدم فتح الخطابات الواردة من روسيا مرة أخرى .

كان إنسحاب أفراد الموساد من مراقبة محل الإقامة المزعوم ، لسعيد توفيق فى موسكو ، مؤشراً خطيراً لدى المخابرات المصرية ، لتأكدهم من أن الموساد ، بدأت فى تغيير خطتها لمعالجة الموضوع، وأنها لا تستبعد إستخدام العنف مع أفراد عائلة سعيد توفيق ، من أجل الحصول على أى معلومات تفيدهم بمكان تواجده ، أو على أقل تقدير ماذا يفعل ؟ لذلك شددت المخابرات من قوة التأمين ، على منزل العائلة ، تحسباً لأى إعتداء من قبل رجال الموساد ، وقد رصدت المخابرات المصرية ، دخول بعض عناصر الموساد من عدة منافذ ، ولكنهم إستطاعوا الإختفاء والهروب من عناصر رجال المخابرات المصرية .

بدأت المخابرات فى تتبع ساعى البريد ، ومراقبة هاتفه الخلوى ، وكذلك هاتف المنـزل ، وقد تمكنت المخابرات من رصد محادثة هاتفية ، بين ساعى البريد ، وأحد عناصر الموساد ، يطلب فيها منه أن يستأجر أحد المساكن المفروشة لمـدة شـهرين ، وأن تكـون بـالقرب مـن منزل سعيد توفيق ، مع التأكيد أن يكون العقد باسم مستعار .

بعد تحديد مكان المحادثة ، تم وضعهم تحت المراقبة ، لتتبع تحراكاتهم ، ثم تم الـتحفظ على ساعى البريد ، ووضع تحت تصرف رجال المخابرات ، وتحت أعينهم ، وذلك من أجل تتبع جميع خطواتهم عن قرب ، والإستماع إلى المحادثات مباشرة ، لسرعة التحرك .

فى آخر محادثة بين ساعى البريد وعناصر الموساد ، كان رده عليهم بأنه قـد أتـم المهمـة ، وأن مفتاح المنزل والعنوان موجودان فى المكان الدائم ، سـأل ضـابط المخـابرات ، سـاعى البريد ، ما هو المكان الدائم ، فقال : صندوق بريدى ، فى مكتـب بريـد منشـأة البكـرى ، يـتم إرسال جميع المعلومات فى خطابات على هذا الصندوق، ويتم إسـتلامه مـن هنـاك ، وقـد تـم وضع المفتاح والعنوان داخل مظروف ، وأرسـلته ، سـأله ضـابط المخـابرات ، ومـن يقـوم بإستلام هذه الرسائل ، قال : أنا أعـرف إسـمه فقـط ، ولم ألتقيـه مـن قبـل، إسـمه سـيد عبـد المقصود بدر .

تحرك أحد ضباط المخابرات إلى مكتب البريد ، وتم التعرف على الشخص المذكور ، وتم الإستعلام عنه ، وقد تبين إنه عامل بناء، وقد عاد منذ عامين من العراق ، بعد ان عمل هناك لمدة خمس سنوات .

توجه رجال المخابرات إلى المنزل الذى إستأجره ساعى البريد لعناصر الموساد ، وتمكنوا من الدخول إليه ، ثم إنتشروا فى أرجائه ، إنتظاراً لوصول عناصر الموساد .

دخل إلى المنزل سيد عبد المقصود بدر ، للتأكد من أن المنزل غير مراقب ، وقد تم الإتفاق معه ، على الإتصال بهم بعد ذلك ، لكن المخابرلت المصرية أفسدت خطتهم ، وطلبت منه الإتصال بهم ، وتم القبض عليهم ، دون أن يشعر أحد من عائلة سعيد توفيق .

37

إطمأنت المخابرات العامة ، لعدم وجود أى نشاط لعناصر الموساد ، فى نطاق منزل سعيد توفيق ، بعد أن تكبدت خسائر كبيرة ، حيث تم القبض على أكثر مـن عنصـر مـن عناصـرها ، لذلك قررت الموساد وقف العملية .

وصلت معلومات إلى المخابرات العامة تفيد بأن والدة سعيد توفيق ، تعـانى مـن سـرطان الثدى ، وإنها فى حاجة لعملية جراحية لإزالة الورم ، وقد إستقر لدى رجال المخـابرات ، أنـه من الضرورى ، إبلاغ سعيد توفيق بهذا الأمر، لأنه من حقـه علينـا أن يـرى والدتـه ، حتـى لا يتكرر ماحدث من قبل ، ووفاة أبيه دون أن يراه ، خاصة أن الأمور قد إستقرت بـالقبض عـلى العناصر التى كانت تراقب منزله ، ولكن لابد من التمهيد لهذه الزيارة أولاً ، وسـوف نـبلغهم بأن سعيد كان فى بعثة فى روسيا فى مهمة سرية ، وسوف يأتى لزيارتهم لمدة ثلاثة أيام فقط .

أصر سعيد توفيق على إصطحاب زوجته معه ، حتى تراها والدتـه، ربمـا لا يمهلهـا القـدر رؤيتها فيما بعد ، وافقت المخابرات على ذلك، وبدأت فى تأمين الطريق إلى المنزل .

وصلت السيارة التى تقل سعيد توفيق وزوجته ، إلى منـزل العائلـة، مـع تواجـد عـدد مـن رجال المخابرات العامة لتأمينه ، والتأكد من خلو المنطقة من أى عناصر عدائية .

إرتمى سعيد توفيق فى أحضان والدته ، التى قبضت عليه بذراعيها، خشية أن يتركها ، وهى تبكى وتقول : مات والدك ياسعيد، كان يريد رؤيتك ، كنت أستمع إليه بعد كل صلاة وهو يدعو لك بالتوفيق ، وتحقيق مرادك فى الحياة ، وان يرزقك الذرية الصالحة ، وقد أحضر إليك زجاجة من ماء زمزم أثناء وجوده فى بعثة الحج ، وقال أمام الجميع ، هذه الزجاجة لسعيد ، لا أحد يقربها حتى يعود ويرتوى منها ، الحمد الله يا ولدى بأنك بخير ، كانت أمه ممسكة بتلابيبه ، قبل يدها ثم قال : هذه هند زوجتى ، تم زفافنا فى موسكو ، تركته أمه وإحتضنت زوجته ، وقالت الله أكبر مثل البدر فى تمامه ، ربنا يخلف عليكما بالبنين والبنات .

بعد أن فرغ من أحضان أمه ، أخذ شقيقته وشقيقه بين أحضانه وقبلهما ، وهويقول : وحشتونى كثيراً ، قريباً سوف أنتهى من البعثة العلمية ، ونكون دائماً معاً ، ملعونة الغربة .

جاء صوته من بعيد « نحن هنا » من وجد أحبابه نسى أصدقائه ، كان الدكتور رامى أسعد صديقه وخطيب شقيقته سعاد ، يتحدث وهو يهرول نحوه ويعانقه عناقاً طويلاً ويقول : أخيراً سوف أتزوج ، لقد أصرت سعاد ألا يتم عقد القران إلا فى حضورك ، لذلك سوف يأتى مأذون العائلة فى الخامسة بعد صلاة العصر ، ليتم عقد القران ، لقد قاربت على سن التقاعد ، ضحك الجميع وتوجهوا إلى صالة الطعام لتناول الغداء .

كان سعيد قد أرسل مبلغاً من المال لشقيقه أحمد ، من أجل تأثيث مكتب للمحاماه مع أحد أصدقائه ، فى وسط المدينة ، وقد إستطاع أحمد وصديقه فى فترة وجيزة ، أن يكتسبا ثقة كثير من رجال الأعمال، وسكان المنطقة المحيطة ، وبذلك إطمأن سعيد على شقيقه ، الذى كان قريباً من الإدمان ، والغرق فى بحر المخدرات .

بعد إنتهاء الأيام الثلاثة المتفق عليها ، إصطحب رجال المخابرات العامة ، سعيد توفيق وزوجته ، إلى مكان إقامتهم ، تم إستقبال حافل من أعضاء فريق الباحثين ، والدكتور شلتوت لهما ، رغم قصر فترة غيابهما ، ولكن الدكتور شلتوت تعود أن يرى سعيداً كل يوم ، ودائماً يقول له أنا لا أريد أن تنتهى هذه الأبحاث ، لأن بنهايتها سوف لا أراك .

تم إدخال والدة سعيد توفيق إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى لإتمام الجراحة الخاصة بإزالة الورم ، وكان ذلك بأمر من وزير الدفاع ، الذى كان يتابع عن كثب آخر ما توصلت إليه الأبحاث ، بشأن القنبلة النووية المصرية ، وقد أمر بتوفير الدعم الكافى من أجل إنجاح هذا المشروع الحلم .

38

توصل مجدى الحسينى إلى الجين المسؤول عن حماية الصرصور من الإشعة النووية ، وقد تم فصل هذا الجين ، وقد تم إنماؤه فى مزرعة من خلايا الدم البيضاء ، ثم تم حقنها فى الجسم مرة ثانية ، لصرصور من سلالة لا تتحمل الإشعاع الذرى ، ثم بعد فترة تم تعريض هذه الصراصير إلى الإشعاع ، وكانت النتيجة عدم تأثر هذه الصراصير بالإشعاع ، وهذا معناه من الممكن الحصول على تركيب الحمض النووى لهذا الجين ، والبحث عن الجين المماثل له فى الإنسان ، ومن المعروف أن الجينات فى الإنسان توجد فى صورتين ، جينات نقية ، وهى التى تحمل الصفات السائدة، وجينات هجين ، وتحمل الصفات المتنحية ، أو الخاملة ، وقد تم تطبيق البحث على القردة ، ووجد جين هجين ، يحمل نفس تركيب الحمض النووى المقاوم للإشعاع فى الصرصور ، وتم العمل عليه ، بأخذ جزء من حامض نووى للصرصور ، وإضافته للحامض النووى للقردة ، فحدثت طفرة جينية ، نتج عنها إنزيم مختلف ، وهذا الإنزيم أنتج صفات وراثية جديدة ، لم تكن موجودة من قبل ، وهذه الصفة هى التى جعلت القردة لا تتأثر بالإشعاع .

كانت هذه النتائج مبشرة لإمكانية حدوث ذلك فى الإنسان ، ولكن هذا يتطلب إجراء مزيد من التجارب ، قبل البدء فى التجريب على الإنسان ، مع الإخذ فى الإعتبار ، دراسة الأعراض والأمراض ، التى من الممكن ان تظهر على هذه القردة ، نتيجة تغيير الخريطة الجينية لها ، وكذلك الأعراض التى من الممكن أن تحدث لنسلهم، لذلك نحن ننتظر حتى تلد القردة ، ونقوم بعمل الفحوصات للأجنة.

كان الجميع يستمعون لمجدى الحسينى بإنصات لأهمية ما يقوله، ولم يعلق أحد عما قاله ، لأن البحث كان جديداً من نوعه ، ولابد من التدقيق فيما قاله ، والتأكد من النتائج الذى توصل إليها ، الوحيد الذى تحدث كان الدكتور شلتوت ، وقام بتوجيه سؤال إلى الدكتور مجدى الحسينى ، كم تحتاج من الوقت كى تتوصل للنتائج النهائية ، رد الكتور مجدى قائلاً : القردة تحتاج إلى أكثر من ستة أشهر حتى تضع حملها ، وبعدها تتم الدراسة على صغارها .

39

بعد أكثر من عامين من العمل المتواصل ، أصبح الدكتور شلتوت وسعيد توفيق على مقربة من تحقيق الحلم ، فقد توفر لديهم كمية من النحاس المخصب تكفى لعمل قنبلة نووية .

ذهبا سوياً تحت حراسة مشددة إلى المصانع الحربيـة مـن أجـل الإطمئنـان عـلى الجسـم الخارجى للقنبلة ، ومطابقته بالمواصفات التى تـم وضـعها مسـبقاً ، وقـد لاحظـا أن الجـزء المخصص لوضع المفجر غير مناسب ، لذلك طلب الدكتور شلتوت من المهندسين تعديلـه ، وإنه سوف يعود بعد غد للتأكد من مطابقة جسم القنبلة من النموذج المتفق عليه .

تحدث الدكتور شلتوت مع سعيد توفيق بشأن إختيار المكان الذى سوف يتم فيه ، تفجيـر القنبلة النووية ، ورغم أن مصر قد وقعت على معاهدة ، حظر التجارب النوويـة عـام 1963 ، والتى تنص على «الإمتناع عن إجـراء تجـارب نوويـة فى الجـو وتحـت المـاء ، أو فى الفضـاء الخارجى ، ما عدا تحت الأرض » .

إذن لابد من إجراء التفجير النووى فى جوف الأرض ، وفى نفس الوقت لابد من توافر مبان خراسنية ، وهياكل من الفولاذ ، وبعض حيوانات التجارب ، لدراسة تأثير الإنفجار النووى عليهم .

هل تعلم يا سعيد ، أن فرنسا أجرت تجاربها النووية فى الجزائر ، فى منطقة فى جنوب غرب الجزائر ، تعرف بإسم « رقان » ، وهى منطقة مأهولة بالسكان ، وقد إستخدموا أكثر من 150 أسيراً جزائرياً كفئران تجارب ، لمعرفة التأثير المباشر للإشعاع على الجنس البشرى .

والغريب أن العدو الإسرائيلى هو الذى موّل هذه القنبلة النووية ، وكان هذا أول تعاون نووى مشترك بين إسرائيل وفرنسا ، على أرض فرنسية عام 1960 ، بقنبلة نووية تفوق قوتها قنبلة هيروشيما بسبعين مرة ، وهم يعلمون تماماً ، مدى الدمار الذى سوف يخلفه هذا الإنفجار ، وأن سكان هذه المنطقة سوف يعانون لفترة تزيد عن 4500 سنه ، من وقع الإشعاعات النووية .

شئ محزن يا سعيد أن تشعر بالدونية ، وأن الآخرين يستخدموك مثل حيوانات التجارب ، ظللنا كثيراً مفعولاً بنا ، لم نقدم أبداً على الفعل ، دائماً أفعالنا ، رد للفعل ، صوتنا محبوس ، وقوتنا متفرقة ، أقوياء على أنفسنا ، ضعفاء على أعدائنا ، أموالنا وخيرنا لغيرنا ، متى نستيقظ ؟ تراثنا وكتبنا المدرسية مكتظة ، قصة الأرنب والسلحفاة، وقصة أكلنا يوم أكل الثور الأبيض ، ومع ذلك مازلنا نؤكل كل يوم .

40

بعد محادثة هاتفية قصيرة ، خرج أحمد توفيق مهرولاً من منزلـة ، فى إتجـاه حـدائق القبـة ، حيث يوجد مبنى المخابرات العامة ، كان يحمل معه بطاقة بإسم «عـادل الجنـدى »، عنـدما أعطاها إلى الحارس الموجود خارج مبنى الجهاز ، سمح له بالمرور ، إصطحبه أحـد الأفـراد إلى مكتب العميد حمدى إبراهيم .

بعد أن فرغ من صلاة الظهر ، تبادل معه التحية ، وسـأله عـن سـبب حضـوره ، قـال أحمـد توفيق : أنا شقيق سعيد توفيق ، وقد أعطانى هذه البطاقة أحد الضباط ، أثنـاء وجـود شـقيقى منذ شهرين ، وطلب منى الحضور إليه إذا حدث أى مكره .

طلب منه العميد حمدى الجلوس ، وسأله عما حدث ، قـال أحمـد توفيـق : إن شخصـاً قـد إتصل به منذ ساعة تقريباً ، وقال لـه ، أن شـقيقته سـعاد وزوجهـا الـدكتور رامـى أسـعد ، فى قبضتنا فى تل آبيب ، وطلب منى أن أبلغلكم هذه الرسالة « الإفـراج الفـورى لرجالنـا ، أمـام الإفراج عن سعاد و رامى » إنتهت الرسالة .

ضغط العميد حمدى على زر بجانبه ، جاء على أثره أحد الأفراد ، طلب منه أن يبحث عن الضابط فوزى الفقى ، فى كل مكان ، أريد أن أراه أمامى بعد خمس دقائق .

ودع العميد حمدى إبراهيم ، أحمد توفيق مع التنبيه عليه ، بعدم ذكر أى شئ عن موضوع إختفاء شقيقته و زوجها .

تم عمل إجتماع عاجل لمناقشة الأمر ، وبدأ إنتشار رجال المخابرات العامة فى جميع المنافذ والمطارات ، لعدم تهريبهم من هذه المنافذ ، وتم مناقشة جميع الإحتمالات ، قال الضابط فوزى الفقى : ربما مازالوا هنا فى القاهرة ، أو فى أى محافظة أخرى ، أو قد تم نقلهم لإسرائيل عن طريق البر ، أو ألبحر ، وفى هذه الحالة ، تُصعب علينا الأمور .

الآن لابد من تحديد آخر مكان تواجدا فيه ، وكذلك الوقت ، حتى نستطيع ، الجزم بكان وجودهم .

قال العميد حمدى : عليكم بالتحرك السريع ، كل دقيقة تمر ، لها ثمن، من الآن يتواجد أحد الضباط فى منزل أحمد توفيق ، ويتم وضع هاتف المنزل تحت المراقبة والتتبع ، لتحديد المكان الذى يتحدثون منه .

تم إتصال أخر من نفس الشخص ، وطلب من أحمد توفيق أنـه يريـد التحـدث مـع ضـابط المخابرات الموجود بجواره ، حاول الضابط أن يطيل من مدة المحادثة حتى يعطى لجهـات التتبع معرفة المكان الآتية منه ، بحديث مقتضب طلب عميل الموساد من ضابط المخابرات ، سرعة تنفيذ ما طلب منهم ، حرصاً على سلامة الرهينتين .

كان رد جهات التتبع أن هذه المحادثة تمت عن طريق هاتف الثريا ، ومن الصعب تحديد جهته .

بعد هذا التقرير تأكدت المخابرات أن سعاد و زوجها مازالا فى مصر ، ومعهم الخـاطفون ، بدأت المخابرات الإستعانة بسلاح الإشارة والمخابرات العسكرية من أجل كشف المكـان الوارد منه المكالمات ، حيث لديهم تقنيات حديثة تمكنهم من ذلك .

بعد المحادثة الهاتفية الثالثـة ، إسـتطاعت المخـابرات العسـكرية ، تحديـد مـوقعهم ، فى شاليه خاص بشرم الشيخ .

على الفور تحركت القوات ، ورجال المخابرات ، وتم محاصرة المكان من كـل جانـب ، وقبل الفجر بقليل تم الهجوم ، وتخليص الرهينتين ، والقبض على إثنين من الموساد .

41

تم تحديد المكان الذى سوف يتم فيه إجراء عملية تفجير القنبلة النووية ، فى الصحراء الغربية ، وقد تم إختيار المكان بعناية شديدة.

تم عمل حفرة فى باطن الأرض على عمق بضعة أمتار ، وتم وضع القنبلة فى داخلها ، وتم توصيلها ببعض الأجهزة الخاصة بالتفجير عن بعد .

وقد تم إنشاء مبان خرسانية ، وبعض الهياكل الفولاذية ، بالقرب من محيط القنبلة ، وكذلك تم وضع عدد من الحيوانات والطيور ،وأنواع مختلفة من بذورالنباتات ، على مسافات مختلفة ، لدراسة تأثير التفجير عليها ، وكذلك تأثير الغبار الناتج من عملية التفجير على تلك الكائنات .

تم تجهيز مكان خاص للعلماء والعسكريين لمتابعة التفجير على مسافة عدة كيلومترات ، عبارة عن مبنى من الزجاج المقاوم للصدمات ، والغير قابل للكسر ، وقد وضع كل منهم قناعاً خاصاً ، يتم التنفس عن طريقه ، تحسباً من تأثير الغبار النووى ، الناتج عن التفجير ، رغم تأكيد الدكتور شلتوت على أن الغبار الناتج ليس له أى تأثير على صحة الإنسان والحيوان .

حبس الجميع أنفاسهم فقد بدأ العد التنازلى للضغط على زر التفجير ، والدكتور شلتوت وسعيد توفيق ، ينظر كل منهما للآخر لأنها لحظات فاصلة فى حياتهما ، الدكتور شلتوت يريد أن يثأر لزوجته ، وسعيد توفيق يريد أن يحصل على درجة الدكتوراه ، وكلاهما يريد أن يرفع من شأن مصر ، وأن يرد لها إعتبارها ، أمام شعوب العالم ، وأن يدرك الجميع ، أن مصر قادرة على الرد ، والردع، لكن بأخلاق ، لأن قنبلتها لا تؤذى الكائنات الحية بجميع أشكالها ، ولكنها ترعب العدو وتصده عن أطماعه .

تم الضغط على زر التفجير ، وكان إنفجاراً هائلاً ، وكأنه الزلزال ، تحول كل شئ فى محيط بمركز التفجير ، إلى دخان كثيف ، غطى المكان كله ، وتحول المكان إلى جحيم .

إحتضن الدكتور شلتوت سعيد توفيق وهو يكاد يقفز من الفرح ، لقد صار الحلم حقيقة ، والخيال أصبح واقعاً .

بكى الدكتور شلتوت وهو يقول لسعيد توفيق : الدكتورة سميرة موسى كانت على حق ، وكنت أنا أيضاً على حق عندما إتخذت منك مساعداً لى ، اليوم فقط أستطيع أن أطلق عليك لقب الدكتور سعيد ، من اليوم سيكتب إسمك فى تاريخ العلم بحروفٍ من نور .

إلتفت سعيد توفيق إلى زوجته وضمها إليه ، ثم قال : أنتِ السبب الرئسى فى تمكينى من ذلك ، أنتِ من جعل منى إنساناً قادراً على التفكير والإبداع ، أنتِ المرأة التى يتمناها كل عظيم ، أن تكون وراءه ، أنتِ حبيبة الفؤاد ، ونور العقل ، ودواء الروح ، ورفيقة الدرب ، سعادتى بإكتشافك ، يفوق سعادتى بإكتشافى القنبلة النووية بمراحل ، فأنت من فجر بداخلى طاقات ما كنت يوماً أظننى أمتلكها، الآن أريد أن أرزق منكِ بعشر إناث مثلكِ تماماً ، سوف أطلق عليهن جميعاً إسم هند ، إنى أحبك يا هند.... أحبكِ.. أحبكِ.... أحبكِ.

بعد إنتهاء الإنفجار ، إنطلق رجال الحرب الكيماوية إلى مكان الإنفجار ، وكل منهم يرتدى الملابس العازلة للإشعاع ، وكذلك الأقنعة الواقية ، كى يحضروا جميع الحيوانات التى مازالت على قيد الحياة ، وكذلك بذور النباتات التى تم وضعها على مسافات مختلفة، وذلك من أجل إجراء الأبحاث عليها .

42

فى جامعة القاهرة تمت مناقشة رسالة الدكتوراه لسعيد توفيق ، وقد حصل عليها بتقدير إمتياز ، مع توصية بنشرها وطبعها على نفقات الجامعة .

تم تعيين الدكتور سعيد توفيق نائباً لرئيس هيئة الطاقة الذرية ، وتم إنتداب كل من الدكتورة هند علام والدكتور رفعت شريف والدكتور مجدى الحسينى والدكتور وائل هياج ، للعمل فى هيئة الطاقة الذرية ، وذلك من أجل إنهاء الأبحاث العلمية والخاصة بتقليل أثار أى إنفجار نووى محتمل فى المستقبل .

تم ترشيح الدكتور شلتوت لنيّل جائزة نوبل فى الفيزياء ، من ثلاث جهات ، جامعة القاهرة ، وأكاديمية العلوم ، وجامعة الملك عبد العزيز .

بادر الدكتور شلتوت بتقديم إستقالته ، وذهب للعيش فى منزل العائلة ، فى إحدى قرى الشرقية ، لكنه قبل السفر بأيام قام بزيارة إبنة خال سميرة موسى ، كى يفى بوعده لها ، وأعطاها نسخة من رسالة الدكتوراه الخاصة بسعيد توفيق ، والتى كتب فى مقدمتها إهداء إلى روح العالمة الفاضلة « سميرة موسى » .

تقدم الدكتور سعيد توفيق وزوجته بطلب إجازة لمدة شهر ، وذهبا إلى مدينة مرسى مطروح ، من أجل الإستمتاع بجمال الطبيعة الخلابة هناك .

وهما جالسان على شاطئ عجيبة ، ومن فوقهما هضبة تشبه حدوة الحصان ، بها تركيبات صخرية مبهرة ، مختلفة الأشكال والألوان .

وضع سعيد رأسه على كتف هند ، وأغمض عينيه ، وقال : هل مافعلناه قد جانبه الصواب ؟ هل صناعة الدمار خير أم شر ؟ لماذا الجميع يتسابق فى الشر ؟ يتسابق فى البحث عن طرق أسرع فى القتل والدمار ، أسلحة نووية ، وأسلحة كيميائية ، وأسلحة جرثومية.

الأبحاث مستمرة من أجل إنتاج أسلحة عرقية ، تستخدم الفروق الوراثية بين الشعوب لقتلها ، أسلحة لها القدرة على الإختيار بين الأعراق البشرية ، تقتل هذا ، وتترك ذاك .

ومن أجل الإمعان فى القتل بدون تدمير ، قاموا بصناعة القنبلة النيوترونية ، التى ينتج عند إنفجارها إشعاع نيوترونات تخترق الأجسام الحية ، وتؤدى إلى قتلها فى الحال ، بينما لا تؤثر على المنشآت بشكل يذكر ، إنه القتل الصامت .

يتحدثون دائما عن حقوق الحيوانات ، ويعترضون على طريقة ذبحنا لها بطريقة بربرية ، كما يقولون ، ويطلبون منا إستخدام طرق القتل الرحيم ، وهم يتسببون فى قتل الألاف يومياً فى أوطاننا، يلقون أطناناً من المخلفات الصناعية والنووية أمام سواحل أفريقيا والبحر الأحمر ، يلقون بنفايات الشمال المتقدم والثرى ، فى دول الجنوب النامى والفقير .

لقد فكرت كثيرًا ًعن مغزى وجودنا كأعضاء فى الأمم المتحـد ، مـا الفائـدة التـى عـادت علينا ؟ نحن دول كومبارس ، مجرد عدد ، كم قرار تم تنفيـذه مـن أجـل العـرب ، مـن أجـل فلسطين .

الكبار يسنون القوانين من أجلهم فقط ، يمتلكون جميع أسلحة الدمار الشامل ، ويجبرونـنـا على التوقيع على معاهدة عدم إنتشار الأسلحة النووية .

كيف يكون سلام بدون عدل ، والإذعان والتلويح بالعقوبات للدول الصغيرة فقـط ، أمـا الدول الكبيرة فمن حقها أن تفعل ما تشاء .

الوجود الإنسانى والتعايش البشرى فى حد ذاته ، أصبح مشكلة كبيرة فى عالمنا المعاصـر ، ثلث سكان الأرض فقط ينعمون برفاهية مادية هائلـة ، ويعيشـون فى تقنيـات علميـة وثقافيـة مبهرة ، وباقى سكان الأرض ، مازالوا يعانون من الجوع والفقر والمرض والجهل.

هل تعلمين يا هند ، عندما كنت صغيراً ، كنت أجد سعادتى الوحيدة فى ذهـابى إلى حديقـة الحيوان ، فى عطلة نهاية الأسبوع ، أقف طـوال الوقـت بجانـب أقفـاص القـردة ، أو بجانـب جبلاية القردة ، أتأمل حركاتهم وتصرفاتهم ، وألقى عليهم ما توفر معى ، من الفول السـودانى ، أو الموز ، كنت أشعر بأن علاقة ما ، قد صارت بيننا ، كنت أفكر فى نظرية دارويـن ، وأصـل الإنسان ، ومع مرور الوقت ، وحدوث الكوارث المتعددة كل يوم ، بسـبب الإنسـان ،بـدأت أقارن بين سلوكنا ، وسلوك القردة ، فكانت الغلبة للقردة ، فهم أكثر تودداً، وتعاوناً فيما بينهم .

أصبحت مشوشاً ، وإختلطت الأفكار فى عقلى ، وعندما كنت أقرأ فى كتاب الله ، فى سورة الكهف ، «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » ، كنت أفكر دائماً ، هل الله عز وجل ، قد فضلنا على الملائكة ، وهم لا يعصون لله أمراً ، ويفعلون ما يؤمرون ، ونحن نفسد فى الأرض، ونسفك الدماء ، فطنت أن الإنسان أصله إنسان ، وليس بقردة أو ملائكة ، نحن أقل من القردة ، ولسنا بملائكة ، أو نحن لا قردة ولا ملائكة ، نحن للآسف بشر ، للأسف بشر .